# المجتمع المدني
# في المدينة المسيحية (القديس اوغسطين)

**عفيان محمد**[1]

تغترف مدينة الإله التي أرادها القديس أوغسطين من العناية الإلهية التي تزيدها سموا ورفعة عن شهوة الحسد والغيرة والميل الغريزي للتسلط، هذا وتجدر الإشارة أن عدا ذلك من المدن ما هو في الحقيقة إلا تحصيل حاصل جراء تنوع أشكال التدبير البشري الذي إليه لا محالة تتسرب أسباب الضعف والقلق ومسببات الهزال الذي ينتهي بالتدهور.

مثل هذا التدهور الذي تزامن مع سقوط إمبراطورية روما في وقت كتب لها فيه اعتناق المسيحية، ومعروف في المجتمع الروماني أنه عايش الوثنية لمدة طويلة، حيث كل فرد يعتقد أن تعدد الإله والخوارق من شانه أن يساهم في تعدد القوى التي تحمي البلاد، ورغم إعلان المسيحية الديانة الرسمية إلا أن الفرد الروماني دوما بقي يتخذ موقف الحذر منها، خصوصا بعد سقوط الإمبراطورية أين خرج هذا من الخفي إلى العلن.

هنا يعيد القديس أوغسطين الحقيقة إلى مجراها الأصلي مبينا طبيعة نشوء المدينة التي فيها مركبان طرف خير والآخر شرير الأول حياة حسب النفس والثاني حياة حسب الجسد والغريزة المادية، وبالتالي تلاشي وأفول القوة الرومانية مرده بالدرجة الأولى إلى اعتبارها مدينة أرضية وبما أن روما كانت كذلك فهي ليست من المدن الخالدة، وهنا وبصورة مثالية يعود بنا إلى أفلاطون وغيره من الفلاسفة الذين استهوتهم التصورات الفاضلة للمدن وبناء أوغسطين للمدينة تميز فكر القديس بلغة خطابية متفننة عودنا عليها خطباء الرومان وأيضا تميز الصراع بين المدينتين ببعده التاريخي، من خلال إطلالته على التاريخ العالمي إذ جوهر المدينة الفاضلة أو فيما نعتها توماس مور لاحقا باليوتوبيا هي ليست ضربا من المرح أو الترفيه عن النفس بالإبحار في عالم الخيال.

وبين طيات هذه المدينة نواميس لا بد وأن تتحقق يوما بعد نزول المسيح الذي يفصل في النزاع القائم بين محبه الله ومحبة الشيطان وطرفيه مدينة الله ومدينة الشيطان ونموذجه عشيرة الملائكة الأخيار والملائكة الأشرار، وبناء المدينة إضافة إلى التجمع البشري هو خاصية إنسانية مثلما نعت أرسطو هذا التجمع في كتابه السياسة بأنه:"حيوان مدني وان لم يكن مدنيا لا اتفاقا ولكن

---

[1] أستاذ مساعد، شعبة الفلسفة، جامعة سعيدة الجزائر

بالطبع"[2] ويضيف أوغسطين لهذا التجمع ضميرا جمعي يتكلم بأنه لا سلطة إلا من عند الله في المدينة السياسية التي تقطع أشواطا من تعاقب الأزمنة ومنذ هابيل وقابيل حتى نزول المسيح وتصبح حقيقة المدينة متكونة من القول بالعناية الإلهية وفلسفة التاريخ والتيولوجيا ووعد بالخلاص وهذا ما ننوي توضيحه من خلال المطالب التالية:

**1- المدينة الأوغسطينية من الواقع إلى المثال.**

ومن مدينة الإنسان التي اقل ما يقوله القديس أوغسطين عنها بأنها مجرد حضارة أرضية قدرها المحتوم هو الزوال، ينتهج سياسة دفاعية تحول روما من مدينة الإنسان إلى مدينة المثال، والدولة المخيالية التي كمالها من كمال التدبير وروحها دينية خالصة، توفر العدالة والأخلاق للراعي والرعية على حد سواء،والحضارة في قيامها لم تكن بالبساطة التي يتصورها العامة أيضا تدهورها لا يقبل هكذا بكل عفوية، لذلك هم انحطاط روما في ظرف ثلاثة أيام تقاسم التفكير فيه الوثني والمسيحي.

لاسيما وأن أمجادها بلغت العالمية فراح الوثني يتطير من المسيحية ويحاول كسب رحمة كبير الآلهة جيوبتر بتسليط لعنة الاتهام على المسيحية، وفي المقابل راح القديس أوغسطين يوضح أن الإنسان ليس كاملا بدون دين والغياب الديني يكون مقابل إسراف الرومان المفرط في استباحة الشهوات الأمر الذي كان سببا كافيا لسقوط الإمبراطورية وفنائها وأصبحت لقمة سهلة للأعداء، وتجربة القديس أوغسطين في حياته الدينية هي التي يعود إليها وليس هذا حكما مسبقا عنده إذا وضح جيدا في اعترافاته عدوله عن المانوية ومدى فساد هذه النحلة، وفسر التاريخ الروماني مبنيا أن ما يزرعه المسيح لاتستأصله قبائل القوط، والسلام والخلاص المسيحي آت.

ويعد زاده المؤلف من اثنين وعشرون كتابا المعروفة بمدينة الإله، وفيما يلي نوضح حقيقة المدينة وتحولاتها إضافة إلى الصراع بين الخير والشر،ومن وراء هذا كله يبحث عن سر الحياة الآمنة آملا بتحقيق أرض الميعاد المثالية، وبذلك بعد واقع روما المعاش زمان المجد تصبح حديث الأوراق ووجودها في رأس أوغسطين الذي برع في الدفاع عن المسيحية وفي تحليل أسباب السقوط، هذا الوجود مثالي وإن جاز لنا استعارة اللفظ من صاحبه توماس موراليوتوبي ومعناه اللامكاني قصد تجاوز الواقع مفلسفا بذلك التاريخ، ويذكر أصول المدينة وبنيتها الحقيقة على

---

[2] أرسطو، السياسة، تر: الأب اوغسطينوس برباراه البوليسي (ط 2: بيروت، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع)، 1980، ص 8.

المستوى الأيطيقي والبوليطيقي،والسوسيولوجي، أين تحاكي تنظيم الملائكة، ومقابل هذا الصراع بين المدينتين الأرضية والسماوية الذي ليس نزاع ابدي بل محسوم في النهاية لصالح مدينة الإله المتعالية عن كل الشرور وفيها ينعم الأفراد بالسلام الدائم، وريثما يحل عصر الخلاص الذهبي يحلل أوغسطين تاريخ المدينتين، منذ النشأة ليبين حقيقة التاريخ العالمي والتاريخ الإلهي ليصل إلى الدولة الموعودة بكل مقوماتها المقدسة.

وبعدما كان البعض يعتقد أن روما مقدسة وخالدة أصبح وجودها حديث عابر، يحن إليها كل فرد ألف حياة المجد وحاول أن يرفع التدهور بتوجيه الأنظار إلى اليقين بأرض الميعاد والدولة المخيالية، فضعف روما كان من ازدياد قوتها التوسيعية، هذه القوة تلاشت بمرور الزمن فهل هذا مرده إلى الانحراف عن العناية الإلهية؟ أم هو مسار التاريخ الذي وصل عند هذا الحد؟

إذ تسقط روما بل تحرق في ظرف وجيز على يد طاغية همجي وهنا تحدث الصدمة لمن كان يراهن أن نموذج القوة اكتمل لاسيما بعد التحام القوة المادية بالوازع الروحي بعد دبت المسيحية وإنتشرت بالقدر الذي يؤهلها أن تصبح الديانة الرسمية داخل الإمبراطورية التي حررت المعتقد من أوهام الأوثان وتقديس آلهة والقوى الخارقة التي لا تحمي البلاد، ورغم اعتناق غالبية الرومان للمسيحية إلا أنهم تطيروا منها حيث اعتبروا بأنها سبب الضعف و مقابل هذا الهجوم الشرس على المسيحية يعلن أوغسطين هجوما على الشرور والشهوات وكل ماله علاقة بالمادة عن النحو الأفلوطيني والقطيعة المسيحية مع غرائز الحياة ويأخذ مادته من الإنجيل وفيه العودة المرتقبة للمسيح مخلص الضعفاء من ظلم الأقوياء.

رد أوغسطين على الذين اعتبروا التعاليم المسيحية هي سبب التدهور، بل هم يجهلون الحقيقة كون الإمبراطورية هي مجرد مملكة دنيوية فانية خاضعة للفساد وهذه من خصائصها الجوهرية ويقول:"ومن الممكن أن الرومان قد خدعوا أنفسهم حول تعاليم أبيقور فمارسوها على أساس أنها تقتضي الاستسلام للحواس..أما الإفراط حسب أبيقور فهو يدفع إلى الألم"[3] .فإنهاك الرومان وتكالبهم على الأطماع الدنيوية أنساهم الجانب الديني وحادوا عن صحبة الله الحقّة بل احتقروها أمام تقديس وتأليه الذات، ومخالفة العناية الإلهية وتدنيس الفضيلة الأخلاقية.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الإسقاط الطوباوي على المدينة الإلهية عند القديس أوغسطين [2]ذو روح واقعية، بل هي الواقع بعينه ومن منظور الفلسفة السياسية فهي مؤلف لاحق تجاوز النظرة السابقة وأعاد بناء المدينة والدولة، وهذا ما يحرك تقدم الفكر السياسي بروح النقد

[3] القديس أوغسطين،مدينة الإله،الكتاب التاسع عشر، ص 101.

وهذه خاصية أبدا ما تنسلخ عليها روح الفلسفة، فمدينة الإله لا تكلفنا الرحلة إلى مدينة خيالية بوزن ومقياس ما ذهب إليه توماس مور، وكما هي ليست من قبيل الأحلام أو الإبحار في عالم الخيال، بل هي واقع بين طياته نجد ازدواجية الدفاع، أما المستوى الأول للدفاع فأدلوجته رد على تهم الوثنين وإعطاء مشروعية للمسيحية وتوضيح بأنها ليست المسؤولة عن ما يحدث بل تترك للأفراد حرية الإرادة، فمن مال إلى حيز الشيطان هو من أهل المدينة الأرضية وهذا ما طغى داخل الإمبراطورية الرومانية أما من انحاز إلى التعفف والتسامح ومحبة الله فهو من أخيار المدينة السماوية الخالدة.

أما المستوى الثاني فهو يعطي الأولوية لكلمة الكنيسة التي تعلو كل تدبير إنسي ناقص،فهي فوق السلطة الزمنية.

ونموذج الدولة المثالية أو تصور الحياة بالتمني ينطلق من الواقع، ويعكس التصورات المتعالية عن شرور البشر بعيدا عن الفساد والضعف والطغيان، " فاليوتوبيا في حقيقة الأمر هي دفاع عن الواقع بافتراض اللامكان واللازمان حتى إنهما قد يؤولان إلى طغيان يزداد تجسيده وراء التمني والأحلام فالمكان.. مكان آخر في الزمان يرتدي دلالة مميزة إنه قلب لنظام قائم، ولنموذج آخر قائم؟[4]

وبعد المدينة الإلهية انتقادي ينطلق منذ نشأة الخلق ومع تأسيس كل مدينة وتحليل قائم لجوهر الصراع بينهما إلى غاية تحقيق السعادة الأبدية .ونظرة القديس أوغسطين لواقع روما آنذاك فتحت المدينة السماوية الخالدة على أفاق متكاملة بين الجانب التاريخي، وبين النحلة الأفلاطونية المثالية أين رفع الإمبراطورية سقوطها إلى حيز المثل أو الحكم القيمي الذي يدرس ما ينبغي أن يكون عليه الأمر من طاعة حقيقة تضمن الخلود الأبدي في المدينة السماوية مع الملائكة الأبرار.

**2- تزامن سقوط الإمبراطورية مع انتشار المسيحية**

بويضة الحضارة الرومانية في تدهور كان جراء تدني الأوضاع على الصعيد السياسي والاقتصادي، والإداري، والاجتماعي، وبعد أن اشتدت شوكة القوة الرومانية، وإنزاحت بتوسعها صوب العالمية بالقدر الذي يلزم الغير بطاعتها، تصبح قبلة لهجمات قبائل القوط التي ما عرفت أوج التدبير السياسي بل ساستها الهمجية والفوضى، ويحدث هذا كله في ساعة

---

[4]- شاتليه فرنسوا ، تاريخ الأفكار السياسية' تر: خليل احمد خليل (د ط، بيروت: دار الفكر العربي، 1984)، ص218.

الوغى أين أحرقت مدينة روما، بعدما كانت ساحة الجدال عاصفة دينية، أبطالها أشخاص أقاموا الاحتفالات وأعدوا العدة لإرضاء آلهتهم التي تحمي البلاد، مثلما تحميها الحصون.

والطرف الثاني يرفض تعدد الخوارق والآلهة ويقيم الحجة بالبحث عن حقيقة الإله، وهذا ما تبناه كل مسيحي مؤمن بفناء الترف ومتزود بالفضيلة مترفع عن خساسة الشهوات، وهذا الجدل حسم لصالح التعاليم المسحية التي خرجت من المضمر إلى العلن، حتى أوغسطين نفسه يعلن ردته عن ضلال المانوية، ويبعد الرعية بالبشارة ويعدهم بالحياة الأبدية، وفي اعترافاته يذكر في الكتاب الخامس في حديثه عن وميض الليل، سعيه إلى الحصول على حجة ثابتة تقنع المانويين بضلال معتقداتهم ويقول" حتى لو أنني توصلت إلى تصور طبيعة روحية لكنت حطمت جميع خزعبلاتهم وكنستها من فكري. ولم يعد لي حق بالبقاء في بدعتهم وقررت البقاء في الكنيسة الكاثوليكية، كنيسة أبائي حتى سطع نور الحق الثبات الذي يضئ لي السبيل" [5]، ونور السبيل أضاء لأوغسطين ومن معه خصوصا بعد " إعلان المسيحية الدين الرسمي لإمبراطورته وبذلك يلتحم المادي بالروحي وتصبح الدولة الأبدية هي الإمبراطورية الرومانية، التي كانت تبدو وكأنها المركز الحقيقي والوحيد للعالم، المكان المثالي الذي فيه يمكن أن تكون الحياة السعيدة"[6] وحديث الحياة السعيدة أفاض أقلام الفلاسفة، وسود قراطيسهم، وألهم عقولهم، بأفكار الحق الطبيعي،العصر الذهبي،المدينة الفاضلة، مثلها القديس أوغسطين بعد ذيوع المسيحية لكن الأمور ليست بهذه البساطة، وبين طيات الأيام تخفي مآل هذا المجتمع والدولة الرومانية التي سيلحق بها التدهور.

وبالضبط في عام 410 م تعرضت للغزو من طرف جماعة ألاريك " هذا وتجدر الإشارة أن قبائل القوط، في وقت مضى قاموا بهجومات حادة وعنيفة ضد الإمبراطورية، إذ دمروا ونهبوا عاصمة روما "[7] فكان إعلان خبر إنهيار روما حدثا مهيبا له صدى قوي كون هذه الأخيرة تمثل للعالم المتوسطي الحضارة الأبدية التي لا تقهر، وأصبحت مشهدا من مشاهد التراجيديا وعم الخراب والدمار في كل مكان، وفي الكتاب الأول من مدينة الإله بين أوغسطين هذا قائلا: " فالعذراى يسبين والأطفال ينتزعون من أحضان أمهاتهم، بيوت ومعابد

---

[5]- القديس أوغسطين، الاعترافات، ص 96.

[6]- فراح عبد العزيز،أنا القديس أوغسطين، أورغ إبن أفرفن من أبناء تاغست، تر : حسين لبرش (د ط، الجزائر: منشورات أبيك، 2007)، ص 277.

[7]- Jean servier ,histoire de l'utopie , p.61.

تنهب، أسلحة وجثت في كل مكان، قتل وحداد في كل ضرب"[8] بحيث نسي الوثني التسامح الذي بشرت به المسيحية ووقف موقف الحذر منها، بالقدر الذي يجعلها هي المسؤول الوحيد عن الخراب الروماني في حين أن للمسيحية الفضل في إعادة بث وإحياء الأمل في قلوب المستضعفين، بعدما عاشوا تدني الظروف.

فاستهواهم الخلاص الأبدي، ليكسروا به غل الاستعباد بعيدا عن التسلط والطغيان والإسراف في الشهوات، وبذاك مع هذا التزامن المسيحي الذي صادف انحلال الدولة الرومانية فالأمر لم يكن من الوزن السهل فراح أوغسطين يتجاوز التاريخ الروماني بحقيقة التاريخ المرتبطة دوما بمبدأ العناية الإلهية، فالتاريخ يبدأ من الله وينتهي إليه، لكن في صيرورته طبعا ترسم عليه أحداث متميزة موجهة نحو غاية معينة.

وعادة ما يصنف مؤلفه مدينة الإله في حيز أعمال فلسفة التاريخ التي توضح غاية التاريخ وحقيقة تدهور الحضارة، على نحو أعمال الغرب في حديثهم عن تدهور الحضارة الغربية وعن تاريخ البشرية، مثلما هي عليه مقدمة إبن خلدون التي توضح أعمار الركب الحضاري والدول، والسر في فلسفة التاريخ الأوغسطينة أن الزوال والهزال السياسي الذي يدق ناقوس الخطر هو من إنصياع النفس للجسد الذي يترك العنان للشر،وبعد هذا الشر يتفنن الفرد في التبرير فأين هي آلهة الرومان؟ التي أقيمت دوما عليها الطقوس، وكانت الرعية تكرمها دوما، فرعاع القوم كما ينعتهم القديس أوغسطين يرجعون هذه الكوارث المختلفة التي ضربت الإمبراطورية على الاسم المسيحي،وهذا من أجل القضاء على المسيحية، فاتهام الدين المسيحي يعد من الزور والبهتان كون الناس سذج يخدهم المظهر ولا يفقهون للجوهر، وكونهم لا يدركون بان المدينة ما هي في النهاية سوى عمارة أرضية، لذلك يجب أن يكون سعيهم حثيثا للظفر بالاستمرار الروحي للحضارة وهذا ما جسده من خلال حديثه عن المدينتين.

فكل من منها تحاكي تنظيم عشيرة الملائكة، إما الأخيار أو الأشرار وهذا حسب إرادة الملائكة في الميل إلى الخير أو الشر وليس الله مصدر الشر. وهنا يرد أوغسطين مبددا البدع المانوية، خصوصا القول بأزلية الخير والشر، جاعلا إياهما بالحرية والإرادة الإنسانية، فالشر دخل بمعصية آدم، مثلما قابيل يعتبر مؤسس المدينة السماوية وهابيل المدنية الأرضية لهذا ينكر القول بالتعاقب الدوري للأحداث التاريخية "فالوقائع الفردية لا تتكرر، والشر من غلبة الهوى على العقل عند الإنسان، فيذهب القديس أوغسطين، ومعه في هذا الطرح غيره من الفلاسفة

---

[8]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الأول ، ص 15.

الذين استلهموا مذهبه مؤكدين بان الشر كله نابع من صميم إرادة الإنسان "[9] وهذا الشر بلغة أدق يتحول إلى عائق وعقبة أمام تحصيل المعارف التي تسمو بالنفس إلى مرتبة القديسين والملائكة.

فالمدينة تعرف كمال الحكمة والتدبير السياسي باتحادها مع الله، وبمدى بعدها عن دنس الأوثان والقول بتعدد الآلهة وإن أوهم الوثني بتنوع الكرامات والخوارق فإنه يغرق المدينة في زور الحقيقة التي تحجبها عن نور السعادة ويذكر في الكتاب الحادي عشر من مؤلفه مدينة الإله قائلا: "بأن المدينة الأصل هي مدينة الله التي نتوق على أن نسكن فيها بالمحبة لتي يلهمنا إياها مؤسسها باني المدينة المقدسة، ويؤثر سكان المدينة الأرضية آلهتهم، لكونهم لا يعرفون إله الإلهة، لا إله الإلهة الكاذبة، الآثمة المتكبرين الذين حرموا من المشاركة في النور الدائم الإلهي فأصيبوا بالعوز وهم متسلطون" [10]. والمسحية ديانة موحدة ففي بداية ذيوعها في أرجاء الإمبراطورية لاقت عقبات أمام تعدد الأوثان داخل المجتمع الوثني الروماني وتنوع الآلهة، وبعد إعتناق المدينة أو الإمبراطورية الرومانية الرسمي للمسيحية زادتها قوة روحية أكثر لكن في هذا الظرف آلت القوة داخل الإمبراطورية إلى الانقسام والفوضى السياسية وعرفت تشتت في القوة، حيث تكالبت عليها القبائل المجاورة بعدما كانت هي المستعمرة لغالبية الأقطار أصبحت المستعمرة من طرف قبائل القوط الهمجية، وهؤلاء الوثنين حادوا عن الناموس الإلهي وانسلخوا عن أخلاق التسامح المسيحية، وسيطرت عليهم الشهوات، منحطين وخائبين أمام حرق روما، وعدم تصدي آلهتهم المزعومة لحماية هذه المدينة، فوجهوا اللعنة والعار كله على المسيحية لذلك أراد أوغسطين انتهاج سياسة دفاعية، من خلال بناء مفهوم جديد يتساءل فيه عن معنى المدينة ويزاوج السلطتين الدينية والمدينة.

ويعرض بمهارة صيرورتها في مخطط العناية الإلهية الذي أعد سالفا من قبل الله، فوجد نفسه في ميدان علم لاهوت التاريخ السياسي وتبني الحجاج الإيماني الذي يوصل إلى التعقل وهاجم بدع الفلاسفة مقتبسا ما استطاع إليه من أسلوب الخطابة المعروف عند شيشرون، والقديس امبرواز أستاذه جاعلا بذلك محبة الله بندا من بنود تأسيس المدينة، إضافة إلى أقاليم العادلة، والاجتماع البشري، فمحبة الله أعز ما يطلب وأفضل ما يكسب.

---

[9]- جيلسون إتيان ، روح الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، ص 176.

[10] - القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الحادي عشر، ص 5.

والمحبة لابد أن تأسس من قبل السلطة الزمانية باختيار ممثل الشعب الذي يعمل وفق التعاليم الأخلاقية ريثما تحل نعمة اليسوع مخلص البشرية، وبمقتضى الفطرة لابد للمدينة من رئيس فيذكر غوستاف لوبون* في مؤلفه الموسوم بروح الاجتماع "أنه ما اجتمع عدد من الأحياء سواء من الحيوان أو الإنسان ألا وكان له حسب الفطرة رئيسا"[11] وهذا الرئيس ملزم بإتباع التعاليم المسيحية عند أوغسطين فالدستور الوضعي وحده ناقص ولا يفي بالغرض المطلوب.

وعليه فإن دستور المدينة يجب أن يرتبط بالتعاليم المسيحية وبالطابع المقدس، فالجديد عند القديس أوغسطين أنه لم يتقيد بآراء المفكرين اليونانيين والرومانيين في طرحه لمفهوم المدينة" ولم يوافق على اعتبار القانون أو الدستور وسيلة كفيلة لتحقيق العدالة الاجتماعية، وبالنسبة إليه فإن العدالة لا يمكن أن تحقق ما دامت الدولة غير مسيحية ولا تسير وفق تعاليم الكنسية... ودافع في مدينة الإله عن ولاء البشرية للهيئات المحلية أو السلطات والجماعات الحاكمة مع ولائها في نفس الوقت للسلطة الروحية وهذا الولاء المزدوج ينتهي بتغلب المسيحية "[12] تماشيا مع الخلاص بنزول المسيح الذي يفصل في الحرب القائمة بين المدينتين الأرضية والسماوية.

ومن سياق الخطاب الأوغسطيني، يتضح لنا طابع المدينة السياسية التي نواتها لا بد بل ويجب أن تكون روحية مستمدة من محبة الله فالناموس الإلهي هنا يحقق القطبية مع الأسطورة. ويعلب دورا جوهريا في بناء المدينة، إضافة إلى أن حقيقة المدينة مرهونة بالتجمع البشري وعلى الرعية الانصياع لسلطة المدنية وطاعة الراعي الذي ينتهل بنوده التشريعية من الفضيلة الأخلاقية ومثل هذه المدينة التي توفر أقاليم الحكمة والعدالة والمساواة فوجودها يبقى مثالي وتضيفها أقرب إلى عالم المدن الفاضلة مما هو عليه في ارض الواقع كون أوغسطين بحث فيما يجب أن تكون عليه حقيقة المدينة السياسية المتحدة باللاهوت، وأعطى للحاكم صفات مثالية مفارقة لطبيعة البشر.

والمدينة السماوية تقتبس من تشريعات المدينة الأرضية لسياسة الرعية، فهذا ليس بالغريب على مثل حضارة روما التي امتازت بإحكام التشريع وبروز فقهاء قانونيين، ومشرعين أمثال شيشرون سينكا، ماركوس أوريليوس، وأراد أوغسطين مزاوجة هذه القوانين بالقيم المثلى التي

---

* غوستاف لوبون،عالم نفس اجتماعي وعالم آثار فرنسي يعتبره بعض علماء الاجتماع الفرنسيين عالم اجتماع،له العديد من المؤلفات في علم النفس الاجتماعي والحضارة.

[11] - لوبون غوستاف ، روح الاجتماع ، (د ط) الجزائر: موفم للنشر ، 1988)، ص 132.

[12]- بحوش عمار، تطور النظريات والأنظمة السياسية، ص ص 113.114.

تحيا بها المدينة، بدءا بالمادة الأولى وهي المحبة ويليها التعقل والتسامح إضافة إلى الدعوة إلى المساواة ففي رسالة بولس إلى أهل كولوسي يعتبر بأن المساواة هي حجر الزاوية حين قال:" أيها السادة قدموا للعبيد العدل والمساواة عالمين أن لكم أيضا سيدا في السموات"[13] فالسيد الحقيقي ليس من يسوس اليوم، وإنما من يحكم غدا في مدينة الإله لذلك على الكنيسة أن تساهم في إدارة المدينة ريثما يحل خلاص المسيح .

وهيئة المدينة السياسة هي من محاكاة مجتمع الملائكة "وأصلهما من تنوع الملائكة إلى أخيار وأشرار، وفي الأخير في نهاية التاريخ النصر والخلاص يكون لصالح محبة الله داخل المدينة الإلهية، هذه المدينة التي يثبتها الله إلى الأبد ".[14]

ومفهوم المدينة الأوغسطينية نجده في سطوره الأولى ما يحيد عن باقي أشكال المدن الأخرى المألوفة تداولها في الحضارات القديمة سواء الشرقية منها أو اليونانية، فهي لا تعدوا إلا أن تكون خاصية التجمع البشري والقانون روحها وهي خاضعة لطاعته وإتباع ملة الحاكم الذي يؤمن للمواطنين قسطاس العادلة، والمدينة تتميز ببعد روحي عند أوغسطين، تاسيسها كان على ركن المحبة التي لابد لها أن تصل إلى الاتحاد بالله قصد بلوغ التعقل وكمال الحكمة وتحقيق الخلود.

وداخل هذه المدينة لن نجد من الناس إلا أحد رجلين إما رجل مؤخر في نفسه إذ أسرف في محبتها وهو مواطن داخل المدينة الأرضية، أو رجلا مقدما على نفسه تجاوز الشرور والملذات بالقدر الذي يؤهله بأن يكون مواطنا في المدينة السماوية المقدسة، والمدنيتين متداخلتين إلى غاية النصر النهائي لمحور الخير فما يبنيه المسيح أبدا لا تبدده قوة الشيطان وشروره.

**3- حقيقة المدينة عند القديس أوغسطين:**

يتضح المعنى الحقيقي أكثر لكلمة cité أي المدينة السياسية أكثر لدى المحدثين، فمجموع المواطنين يشكلون المدينة السياسية، وقد عرف الإغريق الدولة المدينة التي اتسع نطاقها مع الرومان لتصبح المدينة العالمية، ومعيار تصنيف المدينة وضبطها حسب ما ذهب إليه أوغسطين هو طبيعة الحب الذي يفني ذات الإنسان في الله، حتى يكون ناموس المدينة مقدس ويذكر أوغسطين في الكتاب الحادي عشر من مدينة الإله حقيقة المدينة قائلا: " إننا نسمي مدينة الله تلك التي يشهد لها الكتاب المقدس بما له من سلطة إلهية، قلدته إياها العناية

---

[13]- رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي، الأصحاح الثالث/04.

[14]- القديس أوغسطين، مدينة الإله ،الكتاب لحادي عشر ، ص 05.

الإلهية ففاقت كل ما أنجزته سائر الأمم وسيطرت على كل أنواع القوى العقلية، والرب عظيم ومسبح جدا في مدينة إلهنا التي يثبتها إلى الأبد ".[15]

وكل حديث عن مفهوم المدينة لا يخلو من الطابع اللاهوتي الذي يلبسها ثوب القداسة، وهذا ليس بالأمر الغريب على التقليد الفلسفي، ففي الحضارة الشرقية نجد حمورابي يقول بتلقيه الألواح من إله الشمس، وهذا يجعلها مقدسة ويجب السير على حذافرها لأن مخالفتها من عصيان الإلهة، ونفس الحديث ينطبق مع الميتيولوجيا اليونانية، وهذه القداسة عاد إليها أوغسطين جاعلا بذلك أن بناء وتشييد المدن السياسية ليس بالطوب أو الحجارة، وإنما بالمحبة والإيمان ومن خالف هذا عدت عمارته ومدينته شيطانية، فلذلك من البدء المدن صنوان إما خيرة، تحاكي تنظيم وتدبير الملائمة الأخيار، وأما شريرة منصهرة في الظلمات و فانية في إتباع شهوات الجسد وفي تكوين المدينة وتنشأتها الأولى يتبع أوغسطين سنة القدامى، حيث يعود إلى الشعب الخلية الأساسية في تكوين الأسرة نواة المجتمع، ومجموع الأسر يشكل لنا مجتمع إذ ينمو ويبلغ مستوى المدينة السياسية ويتسع نطاقها إلى مستوى الدولة والإمبراطورية فالأمة، ومثل هذا الطرح ليس غريبا على نحلة القدامى.

فنفس التكوين للمدينة نلمسه بين طيات الخطاب الأرسطي في مؤلفه الموسوم بالسياسة، لكن يضفي عليه أوغسطين الجانب الروحي المقدس فالشعب خاضع لسلطتين الزمنية الإنسية،التي تتماشى وفق ترتيب الأمور البشرية بإرادة الإنسان، ويقابلها السلطة الروحية والمرهونة بالركن الإيماني الذي ينتهي بصاحبه إلى أعلى درجات التعقل، وطرحه لحقيقة مفهوم المدينة تجاوز لدولة المدينة في مفهومها اليوناني، فعلى الدولة الإمبراطورية العالمية التي بشر فها فلاسفة المذهب الرواقي، وبلاطها متكون من أقاليم العادلة والتسامح، والطاعة،والسلام ودوما الأفراد ينتسبون وينتمون إلى مجموعة أسر ومجتمع ومدينة أو مملكة وإمبراطورية، وهذا يعد وقعا سياسيا يعكس مدنية الإنسان وميله للاجتماع مع أبناء جنسه والعلاقة بين كل رجل والمجتمع هي وثيقة، كعلاقة الحرف بالجملة، لكن كلمة مدينة لا تعني فقط المدينة كحيز محدود بل من معانيها الدولة الإمبراطورية وتوسعها نفسه بشكل مفهوما للحياة السياسية[16] فالشعب هو تجمع الكائنات العاقلة.

---

[15]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الحادي عشر ، ص15.

[16]- فرنسوا شاتليه وآخرون، معجم المؤلفات السياسية، ص 114.

وليس أي تجمع جرثومي بمقتضى الغريزة البهيمية وروح هذه المدينة مستمدة من طبيعة الفرد ومجتمعه الممدوحة أو الممقوتة، وطبيعة هذه المحبة منبعها الجوهري إرادة الأفراد التي بدورها هي الأخيرة إما أن تساهم في نحت محور للخير والفضيلة، أو محور لظلمات الرذائل الشيطانية، والشر دخل الأرض بمعصية آدم لذلك يسعى كل فرد إلى تطهير وفدى نفسه المسيح من اجل هذا ونحن نقول بوجود مدينتين وأصلهما واحد لكن مجازيا نقول مدينة الشيطان، ومدينة الله فهما متداخلتان والمدينتان ترجع إليها سائر المجتمعات البشرية الأرضية والسماوية، ليست هذه الأخيرة بالطبع ولا تلك شريرة بالطبع كما يذهب إليه المانويون وإنما كل ينتمي إلى إحدى المدنيتين بمحض إرادته، وتجاهد كل مدينة لتحقيق الغلبة على الأخرى".[17]

وإضافة إلى خاصية التجمع البشري الذي يسهم في بناء المدينة، نجد حضور ركن الإرادة المرهونة بالأخلاق المبادئ المعيارية فهي معيار التصنيف فإذا مال الفرد إلى ذاته انحاز لنصرة مدينة الشيطان، وأما إذا مال إلى محبة الله وصل إلى حقيقة المدينة السماوية المقدسة التي تجلت أولا في الدولة العبرية تم الإمبراطورية الرومانية، لكن مافتئ أن لحق الهزال السياسي بالإمبراطورية الرومانية فأصبحت مجرد حاضرة أرضية، وفي النهاية ما هي إلا شكل من الأشكال العديدة للمدن الأرضية المحكوم عليها بالفناء والزوال، أما السعادة الأبدية هي من أسرار من نظروا على محبة الله وروضوا أنفسهم على الزهد والكف عن شرور النفس وإتباع ملذات الجسد وهذا هو أقصر طريق للوصول إلى مدينة الله السماوية التي المسيح هو مخلصها من شرور المدينة الأرضية، وإضافة إلى ما تقدم من كلام فالمدينة تقوم على المحبة والتجمع، وأيضا محاكاة الملائكة.

ومن أجل هذا عمل القديس أوغسطين على دحض إدعاءات وتجاوز اتهامات الوثنيون الذين جعلوا المدينة قائمة على عناية الآلهة، وقصد أوغسطين إعطاء المشروعية والمصداقية للمسيحية،وبناء فلسفة اجتماعية وقيمية جديدة، تفسر التاريخ بجوهر الصراع في ثنائية الخير، والشر، التي يمثلها منذ النشأة الأولى طبيعتين وفي هذا يعود إلى هابيل وقابيل، روملوس ورمسيس، إسماعيل وإسحاق، فكل واحد منهما هو معلم لمدينة إما بالفطرة اليافعة أو بالصورة النافعة، فكانت المدنيتين مدينة الله، ومدينة الشيطان، متشابكتان، ومتداخلتان وبينهما حروب والغلبة تحسم لصالح محور الخير الذي يحيا حياة الروح.

[17]- كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، ص 45.

فورد في الكتاب المقدس عن سفر روما "نحن يا إخوتي علينا حق واجب، ولكن لا للجسد حتى نحيا بحياة الجسد، فإذا حييتم حياة الجسد تموتون، وأما إذا أمتم بالروح أعمال الجسد فستحيون والمجد آت لمحالة وآلامنا في هذه الدنيا لا توازي المجد الذي سيظهر فينا فالخلفية تنتظر بفارغ الصبر ظهور أبناء الله"[18] لذلك الواجب بل الإلزام على كل فرد طاعة السلطة والكنيسة لضمان الخلاص والخروج عن هذه الطاعة يؤدي إلى الشرور والانحلال، لكن تزامن من سقوط روما مع إنتشار الديانة المسيحية، وهذا فيه إختبار للناس حول مدى تمسكهم بإرادة الله، وفيه العقاب لمن كان يعتبر المدينة الأرضية هي الخالدة الأبدية، فقد أهملتها الأوثان وأثملتها الشهوات عن إدراك حقيقة الركن الروحي.

فهذا الجانب لا يعرف أبدا الفناء فبرع أوغسطين في إعطاء المصداقية للمسيحية المهتمة ودعا إلى التمسك بها فمملكة لمسيح تجلت في الدولة العبرية ثم في الكنيسة وفي الإمبراطورية الرومانية التي اعتنقت المسيحية، وفي بدايتها المسيحية جذبت الأفراد لمناداتها بالمساواة وأكدت بأنهم متساوون في نظر الخالق، واعترفت بأهمية الفرد في المجتمع لذلك مالت إليها الطبقات الدنيا من الشعب الروماني "وقد انحصر الدين الجديد بين هذه الطبقات عندما كانت الإمبراطورية في قوتها وفي مجدها وفي هذه المرحلة وقع المسيحيين تحت اضطهاد الرومانيين الذين لم يعترفوا بالدين الجديد، وبعد اعتراف الإمبراطور الروماني قسطنطين زريق الرسمي بالمسيحية في القرن الرابع ميلادي عرفت انتشار واسعا بين طبقات الشعب الروماني المختلفة "[19] وهنا يحدث ما لم يكن في الحسبان، فتقع هجمات قبائل القوط على المنطقة ويحرقون روما ولم يتسنى للوثنيين الدفاع عن المدينة، فحولوا ضعفهم هذا إلى هجوم شرس على التعاليم المسيحية وألحقوا بها العار جاعلين منها المسؤول الوحيد عن سقوط الإمبراطورية.

وخلال رد أوغسطين لهذه التهم برع في الحديث الذي ضمنه "أوراق طويلة حول تدهور الحضارة الرومانية قبل القديس بوسويه وقبل حديث مونتيسكيو"[20] وبذلك توصل إلى إبراز مسار التاريخ العالمي مبينا أهدافه وضرورته، إذ وضع تاريخ روما في الموضع الصحيح والخاص به، ففي النهاية هذه الحضارة مثل الطفل تترعرع وتشب لتهرم ومآلها الزوال. وكل هذا تطلب

---

[18]- سفر روما الإصحاح الثامن /10-12.

[19]- سباين جورج، تطور الفكر السياسي، ص 201.

[20]- Epusave .Combes , la doctrin politique saint augustin (Paris : Libraire Plon, 1927) ,p 48.

منه ربط التقدم بالخير والتخلف بالشر فكانت عدوته الصريحة الى الموروث الثنائي المانوي من خلال القول بثنائية الخير والشر، النور والظلمة وهذا جعله يحذو النعل بالنعل مع الملل والنحل القديمة خصوصا المانوية وأيضا التعاليم الثنائية التي تألف تداولها في الزرادشتية، والمزدكية فقال القديس بولاء الإنسان لمدينتين الأولى ولد بها وهي الأرضية والثانية المدينة الفاضلة السماوية أرض الميعاد وهنا نلمس التوظيف الأوغسطيني لليوتوبيا لكن ليست أي يوتوبيا تكلفنا رحلة العناء في البحث عن مدينة خيالية لامكانية وبإدارة الله والتمسك بالمسيحية سيتحول القول بالمدينة إلى مكان هو متجلي في مدينة الله التي كان هدفها الأصلي الرد على تهم الوثنيين القائلة بان المسيحين أغضبوا آلهة روما" وتحوى مدينة الإله تركيبا ومؤلفة بين حضارة العصر القديم والحضارة المسيحية كأنها جسر بين هاتين الحضارتين، وتفسير لعملية الانتقال من هاته إلى تلك، وهي نظرة شاملة عن تاريخ الروماني، وفي الكتاب عدة أطروحات ومفاهيم قانونية لا تزال حديثة، مثل القانون الطبيعي، وشرعية السلطة، والحرية الطبيعية للإنسان"[21].

ومن خلال هذه المفاهيم يحاول أوغسطين صياغة مفهوم المدينة لتحقيق كمال، القيم الأخلاقية والاجتماعية متأثرا بأحداث عصره، باحثا عن تجاوز الكائن من الصراع الديني، والهزال السياسي، قصد إعطاء مشروعية للكنيسة ودعوة الرعية للتمسك بتعاليمها ليظفروا بالخلاص وبالمواطنة داخل المدينة السماوية المعمقة من شرور البشر، بعيدا عن معاناة أهال المدينة الأرضية في مجتمع أمن ومفطور على محبة الله، فيه الإنصاف والصحة فلا حاجة داخلها لوجود طبيب ولا قاضي، فالسقم غير موجود والعدالة متوفرة، لذلك وإن تزامنت فترة التراجع الروماني مع إنتشار المسيحية، فيعد القديس بعناية وتحليله للتاريخ مرهون بالعناية الإلهية مؤكدا أن خلاص البشر آت شريطة الصبر فتحقيق مدينة الله لا بد أن يتطلب التضحيات وأيضا يتزامن هذا مع عودة المسيح، الذي يخلص البشرية من كل الشرور.

المبحث الثاني: بنية المدينة الإلهية

مدينة الله الخالدة المجيدة تختلف جذريا في مقاييسها عما هي عليه الأمور في المدينة الأرضية موطن الشيطان والفوضى، إذ يفصل وبالتدقيق القديس أوغسطين ما تميز به هذه المدينة من قيم رغم أنها لم تبلغ من التمدن والعمارة ما بلغته المدينة الأرضية، فالمدينة السماوية تستفيد من

[21]- زيعور على، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطة، ص 244.

خيرو المدينة الأرضية، إذ جوهر المطلوب عند أهل المدينة الأرضية تطور مادي، أما روح المدينة السماوية مطلب ديني خالص، فهي تطلب محبة الله وعنايته.

من هنا شخص أوغسطين للمدينة السماوية بنية متكاملة سواء من حيث التنشئة التي هي فيها تحاكي عشيرة الملائكة الأخيار الذين ذابت إرادتهم في محبة الله ومالوا إلى هجر الدنيات التي تدنس صفاء الفضيلة الإلهية وكمالها، وهذه المدينة متراصة البناء من نواحي متكاملة سواء من الجانب القيمي الأخلاقي وفيه ترويض للنفس على محبة الخير الأسمى الذي يقدس الإنسان عكس الميل إلى الشهوات الدنيا التي تحط من قداسته.

ومن خلال هذا يوضح القديس أوغسطين بأن الله كامل ولا يخلق إلا الكمال أما الشر فهو نقص في طبيعة الأفراد، وليس أزلي ناجم من الله كما يزعم المانويين، بل الشر مراتب منه الطبيعي المتجلي في الكوارث الطبيعية ومنه الأخلاقي الذي تطور ومنذ إنحراف عشيرة الملائكة عن الخير وتقديمهم ذواتهم لدرجة احتقار الله، وبذلك المدينة في بعدها القيمي ذات أصول أخلاقية تجعل منها أنموذج الخلود لا عالم التقدم المادي الأرضي.

ومن مستوى آخر فالبنية السوسيولوجية للمجتمع الأوغسطيني داخل مدينة الإله لا تجعل التجمع هكذا جرثومي حول المادة أو نتيجة للبحث عن إشباع الحاجيات بل المحبة هي روح الجماعة وترعاها العناية الإلهية وهي أساس التجمع والتفاهم بين الأفراد.

أما من ناحية البنية السياسية فالمدينة إذ ولا بد لها من قانون جعله أوغسطين إلهي خالص فلا سلطة تعلو سلطة التدبير الإلهي وما على البشر إلا إتباع مخطط العناية الإلهية، وكل هذه النقاط المتعلقة ببنية المدينة الإلهية نوضحها في الآتي ذكره من حديث حول محاكة الملائكة ومكونات الجانب الاجتماعي والأخلاقي والسياسي للمدينة السماوية وكيف تتميز عن نظيرتها المدينة الأرضية.

**محاكاة الملائكة:**

مدينة الإله الخالدة والتي شخص لها القديس أوغسطين رمز أورشليم، على غرار نظيرتها الأرضية فإنها تحاكي عشيرة الملائكة الأخيار مثلما نعتهم بذلك، كون الإرادة هي التي دفعتهم لذلك، ففي الكتاب الثاني عشر من مدينة الإله يوضح أوغسطين قائلا:" إن سبب سعادة الملائكة الصالحين هو اتحادهم بالكائن الأسمى وسبب شقاء الملائكة الأشرار هو انكفاؤهم عمن هو كائن بذاته نحو ذواتهم التي لا كيان لها"[22]، والمدينة الفاضلة الإلهية التي تتجاوز ما هو كائن

[22]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الثاني عشر، ص 66.

من تدني القيم جراء تقديس الذات إضافة إلى التكالب على الشهوات، هي متحررة من كل غل من هذا القبيل، صورتها من صورة الملائكة الأبرار والقديسين"فهناك توافق تام بين المجتمع الملائكي والمجتمع البشري، ومن هذا وجدت مدينتين أو مجتمعين بين الصالحين والأشرار على حد سواء"[23].

وفي نشأة كل مدينة نجد الميل لمحاكاة صنف من الملائكة سواء صالحين أم أشرار، لذلك كان انقسام الملائكة بعد أن شقوا عصا الطاعة بالإرادة وليسو مجبرين والإرادة هي سبب الانقسام وليس كما يزعم المانويين بأزلية الخير والشر"فالخطيئة نابعة من حرية الاختيار، وكل مدينة تحاكي عشيرة معينة من الملائكة وتلاقي في النهاية نفس مصيرها، فيجيء في النهاية الملائكة وينتقمون الأشرار من الصالحين ويرمونهم في أتون النار وهناك البكاء"[24]، ومصير المدينتين مرهون بمآل مجتمع وعشيرة الملائكة.

وفي هذا لا يتحدث القديس أوغسطين عن أربع مدائن وإنما مدينتين وكل واحدة تجد صورتها في صنف الملائكة إما الصالحين وفق طاعة الله أو المنحرفين عن هذه الطاعة، وكذلك تلحق بهم الهزيمة التي تحل بالمدينة الأرضية الضالة عن التعاليم والنواميس الإلهية، والملائكة أيضا اختاروا بإرادتهم فهم في النهاية مسؤولون عنها وليس الله هو سبب الشرور، كما يزعم المانويون لذلك يرد عليهم القديس أوغسطين وبشدة وكما ورد في بدء الكلام عن عشيرة الملائكة، فيعود إليهم القديس أوغسطين في حديثه عن الخلق والزمن وتراتب أيام الخلق، وكيف انقسم الملائكة بعدما شقوا الطاعة.

فكل مدينة تجد صورتها في إتباع صنف من الملائكة أخيار فضلوا العيش على الفضيلة الأخلاقية أو أشرار حادوا عنها ومالوا لجنب الرذيلة، وأهل المدينة الأرضية، يتبعون الملائكة الذين أخطأوا، "والله لم يشفق على ملائكته حين أخطأوا بل في سلاسل الظلام طرحهم في نار جهنم وسلمهم للقضاء"[25]، والقضاء يفصل فيه المسيح إذ يعطي كل مدينة نصيبها من الشقاء أو النعيم الأبدي، ومع انقسام مجتمع الملائكة حسب إرادتهم إلى أخيار وأشرار فهذا تعبير عن نقص موجود فيهم، فالله كامل ولا يخلق الإرادة الناقصة عند الأفراد، ولا يخلق الشر بل هو تعبير عن نقص في الموجود أو بلغة أخرى فانقسام الملائكة الذي تحاكيه كل مدينة

---

[23]- المصدر نفسه، ص 58.

[24]- متى الاصحاح التاسع والأربعون/ 30.

[25]- رسالة بطرس الرسول الثانية، الإصحاح الثاني/ 04.

سواء سماوية أو أرضية، هذا أمر مكتسب بالإرادة و حسب طبيعة الحب والميل وليس بالنظرة الفطرية الإلهية.

وبينما نجد ميل الأشرار والشيطان إلى النزوات العابرة الفانية، فهذا مطلب جوهري عند أهل المدينة الأرضية، أما المدينة الخالدة التي يرمز لها القديس أوغسطين بأورشليم الخالدة الأبدية، فهي تحاكي الفضيلة السامية عند عشيرة الملائكة الأخيار، وبذلك النشأة الأولى بدأت بانقسام الملائكة، فشخص القديس أوغسطين لهما الثنائية في التقسيم "إذ يفسر التمييز بين المدينتين السماوية والأرضية، وهذا ما فصله في مدينة الإله، والآن نستطيع أن نعتبر هذا التمييز قائم إلى يومنا هذا"[26] .

وجوهر هذا التمييز مستمد من طبيعة الحب سواء كان يميل إلى الله أو انحرف عنه، فيكون الشر هو تخلي عن الكائن الأسمى إلى حساب الكائن الأسفل، وبذلك يحكم الله على الملائكة الأشرار بالعقاب الأبدي وكل واحد خاضع للحكم سواء من الملائكة أو عداهم من الأشرار الذين غواهم الجسد وعاشوا حياة الشقاء المليئة بالضيق والخالية من العدل، ويذكر القديس أوغسطين في الكتاب العشرين من مدينة الإله قائلا: "إن الله لا يكتفي بإصدار حكم عام على الشياطين والناس يقضي عليهم بالشقاء بسبب خطيئة الملاك الأول، بل يقاضي كل واحد على أعماله الشخصية..."[27]، ومادامت كل مدينة تجد صورة لها في عشيرة الملائكة فإنها تلاقي نفس مصير طائفتي الملائكة، وينال كل واحد ما يستحقه في نهاية التاريخ حسب التصور المسيحي. وقد قام القديس أوغسطين " بإجراء مقاربة مهمة بين الملائكة والبشر خصوصا في حرية الاختيار إذ الملائكة من حيث هم مخلوقات روحانية هم مثل البشر في حاجة إلى نفس المساعدة الإلهية لإدراك الحقيقة وحب الخير هم أيضا بحاجة إلى تدريب بعد خلقهم عن طريق رجوعهم إلى علة وجودهم، ومثلهم مثل أوائل البشر فقط للملائكة القدرة على الاختيار الحر الذي يمكنهم من الاحتفاظ بصلتهم بالله أو قطعها"[28]

---

[26]- Jean Claud Eslin, Dieu et le pouvoir théologie et politique en occident, (Paris : Seuil), p 83.

[27]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب العشرون، ص 64.

[28]- جيمس باترونس، أفعال البشر تخدم المعتقد الإلهي، أعمال ملتقى القديس أوغسطين افريقية وعالمية، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، 2004، الجزائر، ص285.

فحياة الملائكة هي التي تحاكيها كل مدينة سواء بطلب الإيمان أو التقيد بشهوة التسلط، بسبب تقديم محبة الذوات على حساب المحبة الحقة لله، وبهذا ينحصر الملائكة الأشرار مع زمرة الشياطين وأهل المدينة الأرضية تحت سلطة الشهوات، مقابل السعادة الأبدية للملائكة الأخيار الذين ساروا حسب التوجيه والعناية الإلهية.

1. **البنية الأخلاقية**:

في المدينة الطوباوية الإلهية التي تحقق الخلاص وتؤمن الحياة الرغيدة لأفرادها فقيمها الجوهرية التي هي قواعد السلوك طبعا تذوب في الإرادة الإلهية ولا تحيد عن محبة الإله لدرجة احتقار الذات، وبهذا تتجلى جملة من المبادئ المعيارية التي وفقها ينبغي أن يسير السلوك الإنساني، وفي إعادة البنية الأخلاقية لمدينة الإله المقدسة كثيرا ما يلجأ أوغسطين إلى الموروث الأدبي، فالذي لا يعرف من الخيرات سوى الجسمانية طبعا ينسلخ من الجانب الإنسي، ويذوب في المادة التي هي سبب الشرور، وكما للجسد سيطرة على النفس فينبغي على الذات تجاوز كل قيد "ففي الواقع أيا تكون السيطرة التي تمارسها النفس على الجسد والعقل على العيوب على ما يبدو إن لم تؤد النفس والعقل واجب العبادة التي يطلبها فان تلك السيطرة على الجسد لا تكون مستقيمة"[29]، وفي هذا يحذو أوغسطين على حذو أفلاطون في بحثه عن الفضيلة وهي من مميزات النفس العاقلة للوصول إلى المبادئ السامية وإدراك الحقيقة لرصد درب السعادة.

فالغبطة الإلهية ونصرة المدينة السماوية في النهاية على قوى الشر وعلى دنس الماديات الأرضية هي من الإرادة الإلهية، ووزن الإنسان هو الذي يضعه في المكان المناسب، وكما يقول أوغسطين: "حاشا لقلب عبدك الذي يعترف لك أيها الرب أن يفكر بأن كل شرير يصير سعيدا، إذ هناك غبطة لا توهب للأشرار بل للذين يضاهونك حبا بك وأنت هو تلك الغبطة"[30]، فالحقيقة الأخلاقية هي من خدمة الذات الإلهية وتقديس كل خير للوصول إلى الكمال الأسمى، وهذا يتطلب من أهل المدينة السماوية الخيرة الالتزام بأمهات الفضائل من العزيمة والصبر وترويض النفس على الطاعة وعدم الاكتراث بالملذات والإيقان كل اليقين بوسطية الكنيسة لنشر التعاليم الأخلاقية، هذه التعاليم التي غابت عند الرومان مقابل تكالبهم على التوسع الاستعماري وتقديس الأوثان التي عجزت حتى عن حماية نفسها.

---

[29]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، ص 162.

[30]- القديس أوغسطين، الاعترافات، الكتاب العاشر، ص 219.

أما أهل المدينة السماوية معصومون من دنس الإرادة الشريرة، فهم يحيون بحسب المسيح لذلك في حديث أوغسطين عن معياري الاستحسان والاستهجان الأخلاقي نجده يرد وبشدة على اعتبار أن الله مصدر الشر، ويعارض القول بأزلية الخير والشر أزليين، وينفي أوغسطين بأن يكون الله سبب الشرور، فهو مصدر كل كمال، أما الشرور فهي من إرادة الإنسان الذي اختار إما العيش بحسب الشيطان، أو العيش وفق اليسوع بولادة جديدة تجعل الله دوما حاضرا في النفس، ويرد بذلك الخطيئة إلى تجاوز القيم الأخلاقية وهذا راجع إلى نقص المحبة والله لم يخلق الشر "فالله مصدر كل شيء ومصدر كل خير وخلق الإرادة سيدة نفسها، وخلقها أيضا قادرة على أن ترتبط بالخير الأسمى وأن لا تحيد عنه، أي إنه يوجهها إلى الخير وهي تقبل أو ترفض"[31].

والفضيلة خالدة في أهل المدينة السماوية وهي الخير الذي فيه تجد النفس سعادتها، أما الشر فهو مراتب منه المرتبط بالطبيعة كالكوارث الطبيعية من براكين، زلازل، ومنه الشر الاجتماعي الذي تغذيه الأنانية والصراعات والنزاعات بين الأفراد، ومنه الشر الديني وهو الانحراف عن الحقيقة الإلهية، فاكتملت هذه الشرور داخل إمبراطورية روما ومتى كانت المعطيات والأسباب يترتب عنها نتائج. فالنتيجة هي سقوط روما وحرقها بكل همجية، والسبب ليس فيما يعتقد الوثنيون بأنهم ناجم عن لعنة الآلهة التي استبدلت عبادة الأوثان بالمسيحية، لذلك نجد أهل روما يتطيرون من المسيحية بل التدهور والهزال السياسي هو جراء التطاول عن النواميس الأخلاقية، ونقص الإيمان وصرف النفس إلى محبة الشهوات.

لذلك في حديث أوغسطين عن بنية مدينة السماء، فهو يتحدث عن نشء جديد تدرب على المكابدة والتضحية من أجل محبة الله، ويفضل أن يتحمل الظلم بدل من أن يظلم الآخرين، ويستبعد كل الشهوات، فمصادر الشر تقوم "على الشهوات الثلاث كما يذكر القديس أوغسطين في اعترافاته، تقوم على: "شهوة السلطة، وشهوة العين والحسد"[32]، أما السلطة فهي سبب الحروب، فكل فرد يسعى إلى الانفراد بالتاج والتدبير بمفرده، فروملوس قتل أخاه ليأخذ المجد بنفسه، أيضا الحسد هو نقطة التمييز بين المدينتين السماوية والأرضية.

لذلك إما أن يكون الإنسان شريكا لليسوع المخلص وإما أن يكون شريك لإبليس ولا وسطية في هذا، وهنا يتبنى القديس أوغسطين الثنائية المانوية القائلة بالخير والشر، النور والظلمة، فأهل

---

[31]- زيعور علي، أوغسطينوس، ص 176.

[32]- القديس أوغسطين، الاعترافات، ص 52.

المدينة السماوية يعيشون على الفضيلة ويهتدون من نورها، أما أهل المدينة الأرضية فيتخبطون في تيه وعماء الرذيلة، ولن يبلغوا الرشد الأخلاقي، فالله ليس حاضرا في مدينتهم ولا يحي أنفسهم فهم أموات بالذنوب "والخطايا التي سلكوا فيها، حسب دهر هذا العالم، وحسب سلطان الروح الذي يعمل الألم في أبناء المعصية"[33]، وتقودهم المعصية التي تحجب عنهم نور القيم الأخلاقية الموصلة إلى السعادة الأبدية دوما إلى الحروب التي سببها الشيطان، وإتباع النفس وتجاهل الحقيقة المطلقة، فقوة المدينة الأرضية من عمارة وجيش وخيرات مادية لا وزن لها أمام قوة المحبة الإلهية التي ترفع الفرد في المدينة السماوية وتسمو به سمو الملائكة والقديسين.

وبنية المدينة الإلهية هي من جوهر الله الأخلاقي الكامل لا الشر*، لا يتسرب إليها نقص الموجود الإنساني الذي يقع تحت وقع الخطيئة وإمرة الشيطان، وبالمسيح المخلص يتطهر الأفراد من الخطيئة ويولدون ولادة جديدة فطرت على الإيمان ومحبة الله والفضيلة الأخلاقية، "ولقد أراد المسيح للفرد أن يرقى إلى المستوى الكلي وبالتالي فإن الفعل الخلقي إنما يصدر عن القلب، لا عن مجرد الخضوع للقانون أو العدالة أو مجرد إطاعة الشريعة فلم يعد في المسيحية أي اتصال بين الله والإنسان، بل أصبحت هناك علاقة حية تجمع بينهما هي علاقة المحبة والحرية"[34]، وبهذه المحبة والحرية تكون الإرادة الخيرة وتعم القيم السامية عند الأفراد داخل المدينة الإلهية، فهناك يتحقق وعد الصابرين على جرم وإسراف وعدوان أهل المدينة الأرضية الضالة، وهذه المدينة هي تحت رعاية الإله، وترعاها عدالة اليسوع فالله كامل مصدر الأخلاق هذه الأخلاق غيبت عند أهل المدينة الأرضية وهذا مما أدى بذور فنائها.

2. **البنية الاجتماعية والسياسية:**

مدنية الأفراد وميلهم إلى الاجتماع مع أبناء جنسهم أمر ما حاد عن ذكره القديس أوغسطين في حديث عن المدينة وكيف تكون من أجل ضمان الاستمرارية التي هي روح محبة الله.وأيضا

---

[33]- رسالة بولس إلى أهل افسس، الإصحاح الثاني/ 1- 02.

* بعد اعتناق القديس أوغسطين المسيحية كان عليه أن يجد تفسير آخر لوجود الشر في الإنسان وفي العالم، فالله خير ولا يتغير وبالتالي لا يفعل الشر أما المخلوقات فهي وإن كانت مخلوقات الله، فهي ليست من جوهره فقد أبدعها من العدم، وما جاء من العدم ليس موجود محض، فهذه الكائنات فيها نوع من النقص- انظر عبد الرحمان بدوي، الموسوعة الفلسفية، ص 250.

[34]- عباس فيصل، الاغتراب، الإنسان المعاصر وشقاء الوعي، (ط 1؛ بيروت: دار المنهل اللبناني، 2008)، ص 69.

يذكر كيف تتكون هذه المدينة الفاضلة بفضل الاجتماع السياسي على محبة الله والزهد عن الماديات وهذا شريطة توفر دعائم وأقاليم هذه المدينة من العدالة، والحكمة والعناية الإلهية بفضل رعاية الكنيسة ريثما ينزل المسيح لينصر الحق.

والدولة يجب أن تنهل من نواميس السلطة الروحية، وتعطي لها الأولوية فهي مجموعة عاقلة تتوحد حول تملك مشترك وهادئ كما تحب "وإذا أراد الإنسان أن يعرف شعبا ما فعليه بكل تأكيد أن يتأمل فيما يحب أيا كان موضوع حبه"[35]

ومن خلال هذا الطرح انفرد القديس أوغسطين في تأصيله لمفهوم المدينة عن سنة الفلاسفة اليونان، إذ لخصوا الدولة كعصارة للتجمع البشري الذي يسوسه القانون، فأضاف أوغسطين الخير الروحي المقدس المتمثل في الولاء للكنيسة التي تبشر الرعايا بالخلاص وتصرفهم عن حياة البذخ التي تجرهم إلى التطاول على محبة الله والى الانحراف لصالح الشيطان، وهذا ما حدث ذات يوم مع المجتمع الروماني فلم تشفع له قوة التدبير السياسي والقانوني ولا تعدد الأوثان ولا التقدم في بناء الحصون أمام الغزو الأجنبي،ورغم كل هذا تسقط الإمبراطورية أمام قبائل همجية، لم تعرف حتى قوام وكمال التدبير السياسي وهذا راجع إلى نمطية الحب الذي اجتمع عليه الرومان.

مما عجل الفساد وجعل الإمبراطورية فريسة للخلافات الدموية التي جلبت لها الانهيار والشتات، لذلك أضاف القديس أوغسطين ركن المحبة الروحية التي تسمو بالمجتمع، مثلما قدم السلطة الروحية على السياسة في قوله بالعناية الإلهية، فالدولة لا تعرف التقدم والرخاء مادامت خاضعة لسلطان النفس وتابعة لإمرة الشهوات وهدفها الوحيد التقدم المادي، فيجب على السلطة أن تكون ذات بعد ومصدر الهي خالص تجمعها وتوحدها طبيعة الحب، الذي يساهم في قيام ووحدة المجتمع وما دامت المدينة الإلهية تتعايش متداخلة مع المدينة الأرضية، فإنها في مجال التدبير الاجتماعي والسياسي تستفيد وتنتفع من تدبير المدينة الأرضية، وهي خاضعة لها ريثما تحقق الغلبة على يد المسيح، والجديد في طرح القديس أوغسطين وتصوره لنشأة المجتمع وطبيعة التنظيم السياسي بأنه لم يوافق على اعتبار القانون والدستور وسيلة كفيلة لتحقيق العدالة الاجتماعية، وبالنسبة إليه فان العدالة لا يمكن أن تتحقق ما دامت الدولة غير مسيحية ولا تسير وفق تعاليم الكنيسة[36]، كون الكنيسة مسؤولة عن البشر وهي مصدر الحقيقة والمعرفة.

---

[35]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، ص 161.

[36]- بوحوش عمار، تطور النظريات والأنظمة السياسية، ص 113.

فجعل القديس أوغسطين أن الإيمان يهدي إلى التعقل والتمسك بالمبادئ الأخلاقية والتعفف من شأنه أن يزيد في قوة الدولة ويوحد المجتمع، إضافة إلى خاصية الاجتماع الذي به تميز الإنسان حيث نعته أرسطو بأنه حيوان سياسي، يضيف له القديس أوغسطين طابع المحبة، فالناس يتفاهمون حول أمور عديدة، منها المستحسنة وهي شيمة من شيم المدينة السماوية الخالدة،ومنها الأمور المستهجنة وهي طبع لا يفارق المدينة الأرضية التي سقوطها أمر لا مفر منه وخلود أهلها في الجحيم، وناموس المجتمع وعرفه وقوانين المدينة مستمدة من المؤسسة الكنسية الرعية على شؤون البشر، وهي سبيل الخلاص من الخطيئة الأولى ومن خالف التعاليم المسيحية تسقط عنه المواطنة من المدينة السماوية كونه يحيا حياة بحسب الجسد وهذا مطلب أهل المدينة الأرضية في إقدامهم على استباحة الملذات الفانية الخاضعة لحتمية الفساد،وجعلهم القوة في المرتبة الأولى.

فبذلك بنية المدينة السماوية و الضمير الجمعي فيها مرتبط بقيم روحية مقدسة متحررة من طلب الشهوات، ومن سلطان النفس الشهوانية والشيطان أما السلطة فهي من تفويض الهي وسابقة عن السلطة الزمنية رغم سيادة السلطة الزمنية في الحالة الراهنة، أي أثناء سيطرة وتغلب مدينة الشيطان الأرضية قبل نزول المسيح "ففي هذه الحالة يشارك أعضاء المدينة السماوية في مزايا المدينة الأرضية وأعبائها ولكن بطريقة مختلفة، فبينما تعتبر الخيرات المادية عند أهل المدينة الأرضية غاية في حد ذاتها فهذه الخيرات يستعملها أهل المدينة السماوية لصيانة روحهم والغاية هي تحقيق الفضيلة"[37]، والقول بتفوق مجتمع المدينة الأرضية التي تتخذ رمزها في الإمبراطورية الرومانية، هذا لا يعني أنه وصل إلى درجة الكمال والسعادة فقط، فهو مجتمع حضارته مرهونة بتأمين الجانب المادي، أما مجتمع مدينة الإله الخالدة التي رمزها أورشليم المقدسة، فجوهر مطالبها هو تأمين الخير الروحي لضمان الخلود الأبدي، فهو مجتمع مؤسس منذ البدء وسالفا على الإيمان وعلى محبة الإله الواحد، وبروز المجتمع السياسي إلى حيز الوجود هو حصيلة سقوط الإنسان"وهو مظهر اصطناعي عن خطايا الإنسان وبذلك فالإنسان ليس الحيوان السياسي والاجتماعي بحكم تعبير أرسطو"[38]، وإنما هو أسمى بذلك فهو كيان مؤسس من أجل محبة الله ويعمل في هذا الوجود لأجلها، ويسير على حذافير وبنود العناية الإلهية،

---

[37]- عبد المعطي علي، تطور الفكر الغربي، (ط 1؛ الكويت: مكتبة الفلاح، 1987)، ص 147.

[38]- فاروق سعد، تراث الفكر السياسي قبل الأمير و بعد، (د ط؛ المغرب: دار الآفاق الجديدة، 1991)، ص 231.

قصد التطهير من الخطيئة وتحصيل الحياة الأبدية السعيدة أو ما يعرف عند الفلاسفة بالعصر الذهبي الخالي من الصراعات والفوضى والأنانية وطلب الماديات.

ومستقبل المجتمع في المدينة الأوغسطينية يكون بالعيش وفق الإيمان وكما يقول القديس أوغسطين في حواراته الفلسفية: "فالله حاضر وموجود في كل مكان حيث يتدخل بشتى الطرق في المخلوقات التي خلقها، وهذا للتذكير بأنه هو السيد ومن أجل تهذيب الإنسان، وإن آمن هذا الأخير فان الله يواسيه وإن تمنى فالله يقوم بتشجيعه، وإن أحب فالله يساعده وإن قام بمجهود معين فالله يستجيب لذلك ويتممه"[39]، وبهذا روح المجتمع هي من المشيئة الإلهية والتدبير السياسي خاضع للسلطة الكنسية الوصية على شؤون البشرية.

كونها تنشر التسامح والعدالة والإخاء بين الناس وهذا الذي نادى به السيد المسيح قائلا: "لا تقاوموا من يسيء إليكم ومن لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر، ومن أراد أن يخاصمك ليأخذ ثوبك فاترك له رداءك أيضا، ومن سخرك أن تمشي معه ميلا واحدا، فامش معه ميلين، ومن طلب منك شيئا فأعطه، ومن أراد أن يستعير منك شيئا فلا ترده خائبا"[40]، فهذه غالبية التعاليم السياسية والاجتماعية للمدينة السماوية التي تجعل الوسيط هو في المؤسسة الكنسية، وعن هذه البنية والتصور الأوغسطيني لطبيعة السلطة داخل المجتمع كانت الأوغسطينية السياسية، فحولت تعاليم التسامح والإيمان وتقديم سلطة الكنيسة إلى طغيان مشروع و تيولوجيا كل من خالفها خالف الله ومصيره جهنم، وما على الرعية إلا الطاعة العمياء والإيقان بقدوم يوم الخلاص، وهناك يعوض لهم عن شقائهم بالنعيم الأبدي والخلود.

أما الملك والحاكم فهو صورة الله في هذه الأرض ولا تجوز مخالفته، فهو يدير مختلف الشؤون بتفويض الهي ريثما تحل نعمة المخلص اليسوع لينصر أهل المدينة السماوية على طغيان واستبداد المجتمع داخل المدينة الأرضية، ويفرق بين مصير محور الخير ومحور الشر الذي يخلد في الجحيم الأبدي، فعلى كل إنسان أن يخضع لأصحاب السلطة " فلا سلطة إلا من عند الله، والسلطة القائمة هو الذي أقامها فمن قاوم السلطة قاوم تدبير الله واستحق العقاب"[41]، فلا يوجد اله آخر غير الإله لذلك هو من يسير المجتمع وفق مشيئته وتحت عنايته، عكس مجتمع المدينة الأرضية

---

[39]- Saint Augustin, Dialogues philosophiques, Tr : R.Jolver, P Delbriolle F.J. Thonnard, (Paris : Desleé Debouwer, 1954), p 657.

[40]- متى الإصحاح الثالث/ 03.

[41]- رومة الإصحاح الثالث عشر/ 01- 03.

الذي تدنو به القيم جراء أتباع الشيطان والانصياع للشهوات الفانية. وإتباع الأوثان التي تتحول إلى أوهام تظلل الأفراد

وبنيان المجتمع داخل مدينة الإله متراص فلا ضرر ولا ضرار بين أفراده،اذ يمتاز بالعفة والحكمة دونما ظلم ولا عدوان بين الأفراد كونهم أحدثوا القطيعة بالتعفف عن دنس الماديات، فيذكر الرسول بولس قائلا: "أما الظالم فينال ما ظلم به وليس محاباة أيها السادة، قدموا للعبيد العدل والمساواة عالمين أن لكم انتم أيضا سيدا في السماوات"[42]، فكل واحد يعمل ما يرضي الرب وبالطبع ما يرضي الرب يرضي الرعية داخل المدينة السماوية التي تواجه دوما حربا ضريرة مع مدينة الشيطان.

وينتصر المجتمع الذي تربى على الطاعة والإيمان حين تنكشف دينونة الله العادلة، "وهناك سيجازى كل واحد بأعماله، إما بالحياة الأبدية لمن يواظبون على العمل الصالح ويسعون إلى المجد والكرامة والبقاء، وإما بالغضب والسخط على المتمردين الذين يرفضون الحق وينقادون إلى الباطل"[43] فوعد بالخلاص للمجتمع الذي تسوسه العناية الإلهية، ووعيد بالشقاء الأبدي لمن سار على نحلة الشهوات الشيطانية، لكن هذا الوعد بالخلاص مازال سره داخل الكنيسة التي يجب طاعتها واستغلها لاحقا بعد أوغسطين أنصار التيولوجيا، فالحاكم هو ظل الله فوق الأرض ولا تجب مخالفته. أما الضعفاء من أفراد المدينة فما عليهم سوى العيش والصبر على أمل انتظار المخلص ليبث بينهم الخيرات والفضائل.

ومن خلال الحديث عن المجتمع داخل المدينة كما تصورها القديس أوغسطين، فإننا نلمس روح المدينة الفاضلة التي كل الخيرات حاضرة فيها ماعدا التي تخدم الشهوات وتؤدي بصاحبها إلى المجون والانحراف، أيضا نجد انحراف أفراد هذا المجتمع قوم وكأنهم معقمون من كل الشرور أشبه بالإنسان الأعلى الذي يطمح إليه نيشته في فلسفته، فهم متحدين على السلام وتجمعهم محبة الإله، في تجانس لا يراعي الاختلاف بل الناس فيه كلهم سواء يحيون بحسب الروح لا حسب الجسد الخاضع لحتمية الفساد، "فمدينة الإله تلم المواطنين من مختلف الأمم، حيث تلم شملهم دون مراعاة اختلافهم، وبفضل هذا تحافظ مدينة الإله على السلام وعلى كل ما يميل

---

[42]- رسالة بولس إلى أهل كولوسي/ 25، 26.

[43]- رومة الإصحاح الثاني/ 6- 09.

إلى تحقيق غايتها، وهذا يتجلى في دوام السلام شريطة أن لا تشذ ولا تحيد هذه الأمم عن محبة الإله"[44].

فالإله الحقيقي يوحد شمل المجتمع ويزيد سلطته قداسة، فهي كاملة تسوسها عناية الإله لا يتسرب إليها الشك، كونها من مصدر لاهوتي وليس ناسوتي ناقص، فالمدينة تتكون من المجتمعات والضمير الجمعي فيها إذا تكلم فهون ينطق بالسلام الأبدي، وينشد بالوفاق بين الإرادات الإنسانية التي صبرت على العناء جراء مواجهة ضلال المدينة الأرضية لترقى إلى السلام السماوي، " فهي إذن مدينة الإله بمجتمعها وقوانينها بدون طبقية ولا تعرف التقسيم إلى طبقات، فهي تحدد القيم والعدالة بكل شفافية ونقاء وصفاء، إذ تترك خيرا شاملا لا محدود للفضائل الفردية أكثر مما كان في الحضارات التقليدية الأخرى بالطريقة التي تتماشى وفق مخطط العناية الإلهية"[45].

فالحضارات والأمم السابقة وإن مست جزءا من سعادة الإنسان، فهي لم تدرك كل هذه السعادة الكاملة وإمبراطورية روما وإن جسدت القوة والفضيلة لاسيما بعد اعتناقها الديانة المسيحية رسميا إلا أن بذور الشر كانت ما تزال تهدد سلام الإمبراطورية حتى تدهورت، وانحل مجتمعها، أما البقاء الحقيقي وسر خلود المجتمع هو من أسرار مدينة السماء المقدسة.

**الصراع بين المدينتين.**

القول بأن المدينتين السماوية والأرضية متداخلتان ومتعايشتان، هذا لا يعني قيام الحرب بينهما، والأمر كله مرده لاختلاف نحلة كل مدينة بين الحياة وفق الجسد في الزمن والحياة الروحية الأبدية للأبرار، ونقطة الصراع تبدأ منذ نشأتهما والأمر محسوم في النهاية لصالح المدينة السماوية الخالدة، لكن في المقابل يجب أن تكابد هذه المدينة السماوية بعض الخسائر التي تلحقها بها المدينة الشيطانية.

وفي مسار هذا النزاع ينصرف أوغسطين إلى توضيح مسار التاريخ العالمي الذي هو ظل لعناية الإله،ويشمل صراعهما حديثا مطولا حول سيرورة التاريخ وغائيته وفق النظرة المسيحية التي تبدأ من الله وتنتهي إليه وهذا ما نوضحه في ما يلي:

1. **نشأة المدينتين:**

---

[44]- Jean Servier, Histoire de l'utopie, p65.

[45]- Ibid, p66.

لا بد وأنه وراء اتحاد الكثير من عامل سواء طبيعي أو اقتصادي وكذا اجتماعي من شأنه أن يسهم في زرع بذور الحضارات بمختلف أشكالها السياسية سواء مع المدينة أو الدولة أو الإمبراطورية، فالمتفق عليه أن كل مدينة نجد لها منطلق ومسار في التاريخ العالمي رغم تسرب بعض اللمسات الأسطورية من الفكر الميثولوجي التي تربط نشأة المدن بالآلهة، أو تحاكيها مما يزيدها قداسة.

أما المدينة كما تصورها أوغسطين أهلها جعلوا النفس مطية ارتاضت لطلب العليات وهجر الديانات في ذات الوقت يؤمنون بالقانون ويكنون له الاحترام، لكن أهل المدينة لهم قلوب وهي الركن الجوهري في نشأة المدينة فالقول بوجود مدينتين هذا لا يعني انفصالها بل هما متداخلتان حتى يوم الدينونة وبداية النشأة. هي تحصيل حاصل لما يخرج من قلب الإنسان و ورد إنجيل متى:" أن كل ما يدخل الإنسان من الخارج لا ينجسه، لأنه لا يدخل إلى قلبه، بل إلى جوفه ثم يخرج من الجسد، وهذا ينطبق على الأطعمة، وقال اليسوع ما يخرج من الإنسان هو الذي ينجسه لان من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة"[46].فالإرادة الشريرة هي التي خرجت من الإنسان واحتبس بداخله الحسد.

وسائر الأفكار سواء تمس الجانب العقائدي أو الأخلاقي فإنها أيضا تضبط المجال السياسي لنشأة المدينتين بين الانهماك في طاعة الشيطان وقيام المدينة الأرضية، والميل إلى محبة الله وهذا هو جوهر الفكر السياسي المسيحي المرهون بالجانب الروحي، أما عن نشأة المدينتين فيعود أوغسطين إلى ثنائيات الخير والشر والأرض والسماء، فاتخذ معلمين هما الأساس لكل تصور، فهابيل نموذج المدينة وقابيل لأخرى، أيضا إسحاق يمثل مدينة و إسماعيل الأخرى كما هو في العهد القديم، ورملوس يمثل مدينة وريموس الأخرى، ومثل هذه الثنائية يتوفر عليها مجتمع الملائكة بين الأخيار والأشرار، لذلك لا وجود لأربع مدائن وإنما مدينتين، نقطة التمييز بينهما هي الحسد، ويتطوران إلى غاية نهاية التاريخ.

وكل من قابيل وإسماعيل ورملوس، هما تجسيد لمدينة البشر التي تفني ذاتها في إتباع الجسد وهي تعبير عن المدينة الأرضية، أما المدينة السماوية يرمز لها على التوالي كل من: هابيل، إسحاق وريموس، وفي حمل مشعل الحضارة والتدبير السياسي دوما نجد شخص واحد ينفرد بالسلطة ولا يشاركه فيها منافس، أما كل مكون للمدينة الأرضية فانه يطيب له العيش

---

[46]- متى الإصحاح الخامس/ 18- 21.

دون منافس، ويهتم بالمجد الأرضي ويغفل الشؤون السماوية، وهذا عذر كاف لتلاشي مثل هذه الحضارة، واستعارة فقط نقول مدينتان فهم في الحقيقة متعايشتان ريثما تحل نعمة اليسوع المخلص ليفصل بينهما.

فالمولود الأصلي للجنس البشري الأول هو قابيل ابن مدينة البشر والثاني هو هابيل ابن مدينة الله، وكما أن كل إنسان هو البرهان الحي على كلمة الرسول القائلة: " لم يكن الروحاني أولا، بل الحيواني وبعد ذلك الروحاني، فهو مولود من أصل محكوم عليه، يولد من ادم شريرا وحيوانيا ولا يصير روحانيا إلا إذا ولد من جديد ونما في المسيح، وهكذا فان المدينتين عندما أخذتا تولدان وتموتان، فالولادة الأولى التي يقدمها الجنس البشري هي ولادة مواطن في هذا العالم والثانية هي ولادة مواطن مدينة الإله"[47].

وإذا كان كل شخص انفرد بتأسيس مدينة سواء في صورتها المتعالية عن شرور الجسد والشيطان أو كما هي عليه المدينة الأرضية، فهذا الشر ليس منبثقا من طبيعة الإله كما يعتقد المانويين، وإنما هو نابع من الإرادة الإنسانية التي يجب أن تسير وفق مخطط العناية الإلهية حتى تتحصل على نعمة المسيح وخلود الملائكة الأبرار "ومن خلال حديث أوغسطين عن نشأة المدينتين فهو يعود إلى موضوع الإرادة، ويؤكد حرية الإرادة الإنسانية على غرار ما ذهب إليه أفلوطين، ويعتبر الإرادة بأنها القدرة على قبول تصور معين أو رفضه"[48].

ومنذ البدء تترعرع المدينتان على سلوك معين، فالسماوية أهلها في بحث حثيث عن أمهات الفضائل التي يجب أن يتحلى بها الإنسان من صبر وعزيمة وتسامح ومساواة كون الله يمطر على الأخيار والأشرار دون تمييز لذلك يجب رفض العداوة بين الناس، فأهل المدينة السماوية أشبه بالسوبرمان الإنساني المثالي تجمعهم المحبة الإلهية لا حاجة لهم إلى قاضي، ولا إلى طبيب فنصيبهم العدالة ومالهم الخلود، وفي الوقت ذاته الذي يكون المواطن فيه ساكن وعضو سياسي في المدينة السماوية، وبينهما صراع مستمر لكن ليس سرمدى لذلك تتضح لنا معالم اليوتوبيا السياسية في بحث أوغسطين عن حقيقة السعادة والقيم المعيارية السياسية التي أبدا لا تنسلخ عن اللاهوت المسيحي وكونها طوباوية لأنها تصور إنسان فاضل مفارق لطبيعة البشر، فالكنيسة تنوب عن المسيح في رعاية شؤون البشر ريثما ينزل المخلص، وتروض الناس على

---

[47]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الخامس عشر، ص 216.

[48]- كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، ص 37.

ضرورة عدم الاكتراث بالملذات والإيقان كل اليقين بوسطيتها ودورها في تدبير شؤون الأفراد.

أما المدينة الأرضية فيتخبط أهلها في ظلمات الجسد بعيدا عن الحقيقة، وتلهيهم الحياة الأرضية عن تحصيل الإيمان، وان نشأت هذه المدينة في البداية بقوة وحققت التغلب، فلابد لها أن تعرف الاندثار كونها مدينة للبشر غير خالدة رغم دقة تنظيمها السياسي، فإنها عرفت القيم الروحية الجوفاء بطغيان تقديس الأوثان، لذلك يجب النظر في التاريخ البشري ووضعه في مكانه الحقيقي.

فتقف مدينة الأرض من ناحية تدفع مجتمعها الأرضي الحوافز والدوافع الدنيا التي تستهدف التسلط والتمسك، في حين تقف في الناحية الأخرى مدينة السماء بمجتمعها الذي ما وجد إلا التماسا للسلام السماوي والخلاص الروحي "فالأولى هي مدينة الشيطان انبثق تاريخها عندما شق الملائكة عصا الطاعة، وقد تجسدت في إمبراطوريات الآشوريين والرومان الوثنية، أما الثانية فهي مملكة المسيح التي انبثقت أول الأمر في الأمة العبرية، ثم تجسدت في الكنيسة وفي الإمبراطورية التي اعتنقت المسيحية"[49]، ولكل مدينة ما يميزها فقد كان بنو إسرائيل ممثلو المدينة السماوية، أما باقي الشعوب هم أهل المدينة الأرضية، ولما جاء المسيح انتهى هذا التمايز واختلطت المدينتان مثلما كانا عليه في بداية الخلق حتى مجيء إبراهيم وطبيعة العلاقة بين المدينتين هي مثل علاقة الكنيسة بالدولة.

فمثلما يجب أن نعطي الأولوية للكنيسة، أيضا المدينة السماوية دوما هي الخالدة، أما المدينة الأرضية فهي حالة عرضية ليست جوهرية مآلها هو الفناء، وفي الوقت نفسه"المدينة الأرضية هي موطن السلطات السياسية بأخلاقها وتاريخها ومتطلباتها ولا مدينة من هذا النوع يمكن أن تكون كاملة كونها تساند الظلم"[50]، فهي دوما في حالة من الفوضى جراء تكالب أفرادها على إخضاع الغير، والحب فيها مزيف في ظلام الشهوات، محجوب عن نور الحقيقية الإلهية، فأهل هذه المدينة الأرضية عيشهم ليس بالإيمان بل بالمادة.

أما مدينة السماء فقد أسسها قابيل وكان يرمز لها بأورشليم قبل مجيء السيد المسيح، وتعمل على أن تجعل العدالة هي المسيطرة[51]، فهي مدينة المسيح وموطن القيم الأخلاقية أو كما

---

[49]- سباين جورج، تطور الفكر السياسي، ص 276.

[50]- زيعور علي، أوغسطين، مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية، ص 225.

[51]- المرجع السابق نفسه، ص 225.

يسميها الفلاسفة بأرض الميعاد، التي تحقق العصر الذهبي فذهبيته مستمدة من الإخلاص والحكمة والنعمة ومحبة الله، فالمدينة السماوية فطمت على التسامح وعنها تنوب الكنيسة، فهي متحررة من كل النزوات.

ومصيرها النهائي هو الخلود أما المدينة الأرضية فلا تشفع لها الانتصارات الجزئية التي تشهدها، ففي النهاية تزول وتندثر لأنها مدينة زائلة، وفي التقدم الزمني بين المدينتين يجب التحلي بالصبر على الشدائد فالحب يعترض النفس بالألم لتحقيق الغلبة على قوى الشيطان، وبذلك في نشأة المدينتين لا يحيد القديس أوغسطين عن النحلة المانوية التي تشب عليها خصوصا معيار التصنيف الثنائي بين محور الخير ومحور الشر، وبين العيش والحياة بحسب الجسد الذي هو موطن الظلمات وسلطته مستمدة من البطش والفساد الذي يحجب نور الحقيقة الإلهية في المدينة الأرضية، بينما في المقابل نجد الحياة بحسب الله والسير وفق التعاليم الأخلاقية للظفر بالاستحسان واستبعاد كل استهجان، وهذه الثنائيات بين النور والظلمة، الخلود والفناء، السماء والأرض تجعل لكل مدينة معلمها منذ البدء سواء الأصل يعود إلى انقسام الملائكة بين الأبرار والأشرار، أو إلى البشر حيث كل مولود يمثل مدينة فالأول قابيل ابن مدينة البشر، وهابيل، إسماعيل وإسحاق مثلما يعود القديس أوغسطين الى التاريخ العالمي والأمر يتعلق بنشأة روما بين روملوس ورمسيس.

وكل منهما يتخذه إما رمزا للكرامة أو نموذجا للهوان "فالله يصنع من المادة ذاتها إناء للكرامة وإناء للهوان، وإناء الهوان هو المصنوع الأول، وإناء الكرامة هو الثاني، إذ الطبع الفاسد هو الذي يسبق في كل إنسان"[52] لذلك لابد من ولادة ثانية في المسيح تحرر البشر من دنس الهوان ليرقى الفرد إلى مرتبة داخل المدينة السماوية التي تجاوزت القول بالخلود في العالم الأرضي، فهذا القول زيف ورياء، إذ رمز القوة الذي اكتمل مع الإمبراطورية الرومانية لم يكتب لها دوام الحضارة فتعرف الهزال والهزيمة على أيدي قبائل القوط، وهذا راجع إلى كون روما وضعت في مسارها الحقيقي من التاريخ الذي يجعلها في النهاية سوى مدينة أرضية فانية لاسيما وأن أفرادها تطاولوا على الأخلاق، وتجاوزوا نور الفضيلة فزادهم هذا ميل إلى سلطة الشيطان. في نفس الوقت كان هذا بذور فناء الإمبراطورية التي تأسست على الحسد، حيث أن أول مؤسس للمدينة الأرضية هو قاتل أخيه الذي وقع تحت تأثير الحسد فروملوس قتل

---

[52]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الخامس عشر، ص 216.

أخاه روموس، لذلك تجدر الإشارة إلى ضرورة التمييز في نشأة المدينتين بين السير وفق الطبيعة الإنسانية، وإتباع النعمة الإلهية التي تعد البشر بالخلاص.

فنشأت بذلك المدينة الأرضية على تقدير الحسد وشهوة التسلط مع روملوس الذي أراد الانفراد بالعرش كونه مقود بالرغبة إلى تحقيق المجد(*)، وداخل إمبراطورية روما راج الفساد الناجم عن إتباع الملل الوثنية التي تغمس صاحبها في الشرور الشيطانية، وهذا الأمر نفسه عجل من أفول القوة الرومانية التي حضر فيها كل شيء فقط غابت محبة الله، وفي الوقت الذي عمت فيه المسيحية كان قدر روما هو السقوط لأنها في النهاية مجرد مدينة أرضية وسر الخلود يكون بالولادة الجديدة مع المخلص اليسوع في المدينة الإلهية الخالدة التي يتخذ القديس أوغسطين أورشليم رمزا لها على الدوام.

ومن منظور آخر يضيف القديس أوغسطين رمزا ثاني لنشأة المدينتين، إذ يعتبرهما على وجه الكناية مدينتان لكن في حقيقة الأمر متشابكتان متداخلتان ريثما يفصل اليسوع في ذلك، وتحل الغلبة للمدينة الإلهية التي بفضل الزهد والكف عن الشهوات وإتباع نواميس الفضيلة، والتسامح تشتد شوكتها وتحقق نصرها على مدينة الشيطان الأرضية، والرمز الذي يتحدث عنه القديس أوغسطين بعد هابيل وقابيل، روملوس ورمسيس، فهو من تقاليد الموروث العبراني " بين إبنا إبراهيم إسماعيل وإسحاق، فإسماعيل ابن هاجر الآمة المولود بحسب الجسد، والآخر إسحاق ابن سارة الحرة المولود بحسب الوعد، وكلاهما ابنا إبراهيم غير أن الواحد مولود كالعادة حسب الطبيعة والآخر ابن الوعد الذي هو علامة النعمة. أحدهما بين بوضوح نظام الطبيعة والآخر يشير إلى النعمة الإلهية"[53]، وكل منهما هو معلم في تأسيس مدينة، وفي هذا نجده يعود إلى العهد القديم ويبين طبيعة المدينتين بين الحياة وفق الجسد وما يقابلها من وجود مادي مآله الفناء والزوال، وبين الحياة بحسب الروح وهذا هو جوهر التعاليم المسيحية لتحقيق كمال القيم، ويرمز إلى المدينة الأرضية بطور سينا وأورشليم تمثل المدينة السماوية "فالذي ولد من الآمة

---

(*)- دوما توجد الرغبة في الانفراد بالعرش، فما اجتمع عدد من الأحياء من الحيوان أو من الإنسان إلا جعل له بمقتضى الفطرة رئيسا، والرئيس في الجماعات البشرية عبارة عن قائد في الغالب هو الركن الأول الذي يقوم به النظام لوحدة الجماعة، والعادة أن القائد يكون قبل ذلك مقود، أي مسحور بالفكرة التي صار هو الداعي إليها، ويستعمل الاضطهاد لسبيل الوصول ونشر هذه الفكرة مثلما حدث مع روبسبيير في الثورة الفرنسي مثلا، أنظر غوستاف لوبون، روح الاجتماع.

[53]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الخامس عشر، ص 218.

بقوة الجسد، أما الذي ولد من الحرة فبقوة الموعد وذلك إنما هو رمز لأن هاتين هما الوصيتان إحداهما من طور سينا تلد للعبودية فهي هاجر، أما أورشليم العليا فهي حرة(*)، وهي أمنا لأنه كتب افرحي أيتها العاقرة التي لم تلد"[54].

وعلى العموم فطابع القداسة لا يمكن نفيه فالشرارة الأولى لنشأة المدينة المقدسة التي تتوفر على كمال أقاليم التدبير السياسي وتتحرر من الظلم والعبودية وهذا ما يزيدها سموا لغياب الحسد داخلها وتستفيد هذه المدينة من خيرات المدينة الأرضية.

أما المدينة الأرضية فرغم تقدمها في الخيرات فهي في أدنى المراتب إذ لا تعرف من المنافع سوى المادية وانطلاقتها كانت من الحسد ومسيرتها لا تخلو من الصراع والنزاع ويكون لها حضارة ومجد لكن لم يشفع لها أمام الحق وانتصاراتها الجزئية على المدينة السماوية لا تحسم الأمر بل الغلبة النهائية تكون لأهل المدينة السماوية أما المدينة الأرضية مصيرها جهنم كون أهلها قدموا الأوثان على توحيد الله ولا دوام للمجد دون ايمان ودون فضيلة أخلاقية ووحدة اجتماعية وعدالة سياسية.

**2- مقياس المدينتين:**

تتجلى الطبيعة الثنائية التي يتحدث عنها أوغسطين ذات البعد المانوي الخالص الذي يقول بأزلية النور والظلمة ويقابلهما على التوالي الخير والشر من خلال نشأة المدينتين السماوية الإلهية ونظيرتها الأرضية بما تعيشه من فوضى دينية وعبثية أخلاقية، وإن أبقى على محور التصنيف الثنائي فانه رد على المانويين بدحض قولهم بأزلية الشر وأنه من طبيعة الإله، فالشر بإرادة الإنسان وخطيئته التي يتطهر منها اليسوع مخلص البشرية جمعاء.

وكما ورد في بدء الكلام عن المدينتين فهما متعايشتان متداخلتان حتى المآل الذي ينتظرهما في النهاية، ولكل مدينة مقياس تنفرد به على الأخرى، ومنذ خلق الإنسان الذي باركه الله حتى انقسام عشيرة الملائكة وكل مدينة تتبع نواميس ثلة من الملائكة أخيار كانوا أم أشرار يتخبطون

---

(*)- في العهد القديم في سفر التكوين، نجد الحديث عن غرابنا إبراهيم الأول من هاجر الآمة والثاني من سارة وهو إسحاق ولدته في سن متأخرة، تكوين الإصحاح 16، 1- 3، أما سارة أي امرأة إبراهيم فلم تلد له وكنت لها جارية مصرية اسمها هاجر، فقالت ساري لابرام" هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة، أدخل على جاريتي لعلي ارزق منها بابن، فولدت له ابن سمي إسماعيل. تكوين 18 وكان لسارة ابن بعدما أصبحت وإبراهيم شيخين متقدمين في السن، وضحكت من هذا وكان أمر الرب فكان لسارة ابن سمي إسحاق. انظر العهد القديم، سفر التكوين.

[54]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الخامس عشر، ص 216.

في الخطيئة والإثم ويعود إلى سفر التكوين الذي يوضح "عمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى البهائم وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته ذكرا وأنثى باركهم الله"[55]، فالبداية توضح لنا حياة النعيم في الفردوس للبشر ومساواتهم في السعادة مع الملائكة، لكن يظهر الشر بعد الخطيئة وبعد انقسام الملائكة.

فكل مدينة على التوالي تأخذ أصلها من تنوع الملائكة ومن سطوة العقل الإنساني على الشهوة أو غلبة الجسد على النفس باستباحة مختلف الرذائل، وتجسد الشر مع أول مؤسس للمدينة الأرضية هابيل الذي قتل أخاه قابيل، أما المدينة السماوية ففيها دوام التسابيح للإله ويعود إلى الملائكة كجوهر التمييز بين المدينتين، فالأرواح التي نسميها ملائكة كما يذكر القديس أوغسطين في الكتاب الحادي عشر من مدينة الإله "هذه الأرواح ما بدأت بأي شكل من الأشكال، ولا في أي وقت تكون ظلمة في بداية تكوينها كانت نورا ولم يخلقوا ليكونوا ويعيشوا فقط في الحكمة والسعادة. كثيرون تخلوا عن هذا النور فحرموا من الحياة السعيدة والحكمة التي هي الحياة الأبدية الواثق من أبديتها الثابتة"[56]، وبذلك عندما فقدت الملائكة الحرمان من الخير طبعا يتحول هذا إلى تيه وعماء في الظلمة والفساد الذي يغطي الحكمة بغشاوة، تحجبها عن نور الحقيقة الإلهية، ويورد القديس أوغسطين الكثير من مبدأ للتمييز بين المدينتين، مستهلا الحديث بطبيعة الحب، فالقوانين والخضوع إلى السلطة والنزاع والاستقرار والطابع المعماري إضافة إلى المقياس الزمني ليصل إلى المدينة الجوهرية الأبدية، ويوضح مصير مدينة الشيطان التي ما هي إلا حالة عرضية أهلها في أدنى مرتبة لا يعرفون من الخيرات سوى الجسمانية، وفيما يلي نورد أهم نقاط التمييز بين المدينتين وفق غربالة التصنيف الأوغسطيني.

1/2 - طبيعة الحب:

كل مدينة إلا وأهلها يميلون إلى المحبة التي وإن انزاحت لصالح المقدس تسمو وتصل إلى الرفعة وإذا مالت إلى المدنس ظلمات الشيطان، فالمدينة لا تشيد بالحجارة وإنما بمحبة أهلها وطبيعة هذا الحب في التوافق مع عشيرة الملائكة إما في حياة الخلود الأبدي، أو التخبط في الشقاء، فيذكر قائلا: "حبان قد يجتمعان في الإنسان ذاته وإنه حسن للإنسان أن ينمو الحب الذي يجعله يعيش

---

[55]- سفر التكوين، الإصحاح الأول/ 26.

[56]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الحادي عشر، ص 22.

عيشة صالحة على حساب ذاك الذي يجعله يعيش عيشة سيئة"[57]، فالسبب الجوهري للتعاسة والشقاء هو مرهون بطبيعة الحب فوزن الإنسان داخل مدينته هو من طبيعة حبه، فالمقياس الأول للتفرقة بين المدينتين داخلي روحي كيانه ثمرة ونتيجة للتغلب على الذات واحتقارها لبلوغ مرتبة الملائكة الصالحين أو هو تحصيل حاصل جراء الانصهار في الملذات وسبب في الشقاء الأبدي.

"كون الولادة الأولى للمدينتين هي واحدة وعبارة عن ولادة مواطن في هذا العالم والتي تتحول إلى ولادة ثانية هي ولادة مواطن مدينة الإله"[58]. فالتحرر من الحيوانية يكون بالتدريب على الكف عن الشهوات لبلوغ الحياة الفاضلة.

فالمدينة تؤسس بالمحبة ويتضح هذا من قول يوحنا " لا تحبوا الأشياء التي في العالم، وإن أحب أحد العالم فليست منه محبة الأب لان كل ما في العالم شهوة للجسد وشهوة للعيون، وتعظم المعيشة ليس من الأب بل من العالم، والعالم يمضي وشهوته وأما الذي يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد"[59].

لذلك فمآل المدينة الأرضية هو من مصير المادة الخاضعة للفساد، فالمدينة الأرضية حالة ظرفية عرضية، أما المدينة السماوية خلودها أمر لا ريب فيها كونها تجاوزت الشهوات.

2/2 - طبيعة الفضائل:

الفضيلة الأخلاقية نجدها دوما مرهونة بطبيعة الحب الذي يسمو كلما ارتفعنا إلى مستوى المقدس، ويدنو كلما ارتبط الإنسان بالجسد والشهوات الفانية، ومن هذا المبدأ كانت المدينة الأرضية والسماوية، فكل مدينة تجسد الفضائل سواء من احتقار الذات ومحبة الله أو من محبة الذات والإفراط في الرذائل، وهذا ما تعيشه المدينة الأرضية، أين يسطو الطبع البهيمي في الإنسان بسطوته على الحكمة والعقل، لهذا يرفض القديس أوغسطين ما ذهب إليه بعض فلاسفة اليونان في بحثهم عن تحصيل السعادة.

فهي ليست جريا وراء استباحة الملذات "فجميع الذين يضعون اللذة في الجسد، ويجعلونها خير للإنسان فهم يحيون بحسب الجسد على مثال الابيقوريين وسواهم من الفلاسفة، وذاك القطيع

---

[57]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الثاني عشر، ص 218.

[58]- المصدر نفسه، ص 116.

[59]- رسالة إلى يوحنا الرسول الأولى، 16، 16، 17.

من البشر لا دخل له في الفلسفة، فهم لا يجدون فرحا إلا في الأفراح الحسية"[60]وجوهر هذه الأفراح في النهاية عبارة عن قيم جوفاء وفي سبيل السمو والحصول على المواطنة داخل مدينة الإله السماوية يكون بتطهير البدن والنفس من دنس اللذات للعيش حياة الخلود الأبدية.

فما يميز المدينة السماوية هي القيم العذراء التي لم تمسها شرور الشيطان، لذلك يجب إعادة النظر في الناموس الأخلاقي، وجعل كل القيم تخدم الروح لا الجسد وهذا ما يميز مدينة الإله عن مدينة الشيطان.

3/2 - **طبيعة السلطة**:

ومن ناحية التدبير فنجد التميز بين كل مدينة حسب نمطية السلطة، فهي بشرية نابعة من إرادة الأفراد في المدينة الأرضية، وهذا دوما يجعلها عرضة للزلل والتدهور، أما في المدينة السماوية فالسلطة هي حسب التفويض الإلهي، والتدابير موضوعة حسب العناية الإلهية وريثما تحل نعمة المخلص اليسوع وينزل لنصرة الخير، تتوب الكنيسة في رعاية شؤون البشر الأخلاقية والدينية، والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومع هذا تحترم الكنيسة الإمبراطور لكن سلطة الكنيسة دوما في المقدمة ورفع وعملقة الإمبراطور إلى مصاف ومستوى الآلهة، هذا ما لا يقبله القديس أوغسطين لذلك كان استبعاد الدين عن النواحي الاجتماعية، يقول السيد المسيح" أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"[61].

وبينما تعرف السلطة في المدينة الأرضية الرخاء فهذا لا يشفع لدوام مجدها بل كل سلطة نابعة من التفويض الإلهي، فالتاريخ مسرحية ألفها الله ويمثلها البشر، فالتاريخ السياسي لا ينفرد عن الجانب اللاهوتي ويجب أن تكون السلطة الزمنية تابعة للسلطة الروحية.

4/2 - طبيعة الحضارة والتقدم:

ومن ناحية الخيرات المادية فتختص بها المدينة الأرضية التي تعرف الرخاء والازدهار وتطورا في العمران ومادامت المدينة السماوية متشابكة مع المدينة الأرضية، فهي تستفيد من خيرها وهذا لضمان البقاء والتصدي لحروبها حتى مجيء السيد المسيح مخلص أهل المدينة السماوية ويفصل الأبرار عن الأشرار ويتحقق الوعد الإلهي، ويدرك الفرد داخل المدينة الفاضلة طبيعة الخيرات الحقيقية في الحياة الأبدية، وليس التيه في تقديس الملذات الجسدية الفانية في المدينة الأرضية.

---

[60]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الرابع عشر، ص198.

[61]- إنجيل متى22- 21.

لذلك يجب أن ترتبط الخيرات بالجانب الديني، فالدولة يجب أن تكون تابعة للكنيسة من أجل تحقيق السعادتين الأولى في الدنيا والثانية في الآخرة، توجه الكنيسة الدولة وتمكن الدولة الكنيسة من تحقيق أغراضها، لذلك ليست هي الخيرات المادية معيارا لتقدم المدينة الأرضية بل معيار الحضارة يتجسد في إتباع العقيدة الصحيحة التي تحقق خلود الأمم عكس المجتمع الروماني الذي ذاب في إتباع الأوثان والشهوات، فحضارة الإمبراطورية اندثرت في ظرف وجيز ومستقبل المدينة الإلهية ليس مرهون بمجال محدد، فهناك الخيرات والسعادة الأبدية فالتقدم الحضاري تتغلب فيه المدينة الأرضية على السماوية لاختلاف مطالب كل مدينة بين المستوى المادي والروحي.

5/2 - الخلود والفناء:

أما الفناء فهو للمدينة الأرضية فشأنها شأن الجسد المنتقل من نمو إلى عجز، لذلك سقوط روما هذا مرده لكونها فقط مدينة أرضية محكوم عليها بالزوال، وهذا ما عجلته غياب محبة الله والارتباط بالأوثان التي لا تحمي المدينة، بل هي عاجزة حتى عن حماية نفسها، وإن سيطرت في البداية المدينة الأرضية، هذا لا يضمن لها الخلود بل في النهاية تكون الغلبة للمدينة السماوية التي أفرادها مسلوغين في محبة الله لدرجة احتقار الذات ومقياس هذه المدينة الخلود "وتكون دينونة الله العادلة الذي سيجازي كل واحد حسب أعماله، أما الذي يصبر في العمل الصالح يطلب المجد والكرامة والبقاء في الحياة الأبدية، وأما الذين هم أهل التخريب لا يطاوعون الحق بل يطاوعون الإثم، فسخط وغضب وشدة على كل إنسان يفعل الشر"[62]، وفي النهاية سيعطي المسيح كل مدينة نصيبها إما العذاب والجحيم فهو للمدينة الشيطانية، والحياة الأبدية هي حليف مدينة الأبرار.

**3- جوهر الصراع بين المدينتين:**

سر الحياة الرغيدة من أجل العيش مع الآخر في عالم تسوسه العدالة الاجتماعية والفضيلة الأخلاقية هم تقاسم التفكير فيه كل باحث في ميدان السياسة وأضرب التدبير سواء كانت في صورتها المعاصرة أم من خلال نسقها التقليدي الذي لا يحيد عن البحث عن شروط الحياة الفاضلة والحاكم الذي يؤمن من قسطاس العدالة، وهذا ما نألفه بين طيات الخطاب الفلسفي السياسي الإغريقي سواء مع أفلاطون أو أرسطو، وصورة أخرى لإحياء الحضارة تهدف إلى بث تراثها الروحي نألف تداولها مع القديس أوغسطين الذي بحث عن الدولة المثالية التي تسود

[62]- أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص 170.

دونما فساد، بعدما انحلت إمبراطورية روما التي قيل عنها أنها أبدية وهي المدينة الإمبراطورية المقدسة لاسيما بعد مسح المسيحية لغبار التقاليد الوثنية البالية وإعلانها هي الديانة الرسمية، وحاول أوغسطين وضع تاريخ هذه الإمبراطورية في موضعه الأصلي كونها لا تعدو وأن تكون في النهاية سوى حضارة ومدينة أرضية شأنها شأن البدن الذي يهرم بطي السنين ومرور الأزمان، أما الخلود يكون بالاتحاد مع الكنيسة التي تضمن السلم والخلاص بين البشر، وتحررهم من مدينة الشيطان التي في طياتها تحمل بذور فنائها.

وعليه كان التوظيف الفلسفي للصراع بين ومحورين جوهره مدينة السماء التي تشخص الداء كله في الشر والجهل والحرب والظلام والجسد والشهوة، وتجعل الدواء بالخير والسلم والنور، والتعقل ومثل هذه الثنائيات عودنا عليها التقليد الفلسفي الذي يعاين ازلية الصراع بين الخير والشر مثلما هو سائد مع المعتقدات الثنائية والتصنيف الثنائي نلمس حضوره بقوة في النص الأوغسطيني لمعالجة تاريخ المدينة والكشف عن الصراع القائم بين مدينة السماء ومدينة الشيطان، وقد تجلت المدينة الشيطانية الأرضية في الإمبراطورية الآشورية وإمبراطورية الرومان الوثنية.

أما مدينة الإله السماوية فهي مملكة المسيح التي انبثقت منها أولا الأمة العبرية ثم تجسدت في الكنيسة وأخيرا في الإمبراطورية الرومانية التي اعتنقت المسيحية، وبين المدينتين صراع والغلبة لصالح محبة الله فهما مختلفان من حيث طبيعة العيش والنظام في شكل خطان منحدران من الجنس البشري "نظام مختص بأناس يعيشون حسب الجسد وآخر مختص بأناس يعيشون حسب الله، ونسمي هذين النظامين فيما يذكر أوغسطين مدينتين إحداهما معدة لأن تحيا إلى الأبد مع الله، والأخرى تعيش في العذاب الأبدي مع إبليس"[63] فالصراع بين المجتمعين الأخيار والأشرار وكل يجد صورته في عشيرة الملائكة.

ومن المجتمع ما نجده يحاكي الملائكة الأخيار، ومنه ما يحذو حذو الملائكة الأشرار لأنهم أخطأوا فمردهم إلى نار جهنم، وطبيعة المدينة السماوية تختلف عما هي عليه المدينة الأرضية ومنذ البدء حتى النهاية، لذلك يبقى بينهما دوما النزاع قائم كون "الشر كله مصدره الإنسان التائه عن خالقه والرافض لكل ارتباط به مما ساقه إلى الهيمنة على كل شيء والميل إلى نزعاته

[63]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الخامس عشر، ص 215.

الخاصة"[64]، ففي المدينة الأرضية نجد الميل جليا وواضح إلى العمارة والحضارة الدنيوية وهذا بلا شك يعجل بالانحطاط، فحضارة الإمبراطورية الرومانية التي تطاول أفرادها في تقديس ما لا ينفع كان هذا من بذور فنائها، فالمدينة السماوي تسعى لاجتثاث كل ما له علاقة بالشر مثلما تنص عليه المسيحية التي هي روح المدينة السماوية، التي يؤمن لها الخلود الله ويخلصها من مدينة الشيطان اليسوع. فالأسوار والبروج والأوثان كلها لم تحمي روما، لذلك تصارع المدينة السماوية قوى الشيطان التي تنتصر في كل مرة، لكن بعد الصبر يكون الخلاص ويسير التاريخ حسب موضعه الحقيقي، فحاول أوغسطين من خلال توضيح مواطن النزاع بين المدينتين وضع تاريخ روما في موضعه الحقيق معبرا عن حالته النفسية التي لم تقبل اندثار الدولة الإلهية الرومانية التي تكاملت سياسيا وروحيا بعد اعتنقاها الرسمي للمسيحية" فالأحداث التاريخية في جوهرها تعبير خالص عن وقائع نفسية"[65]، وحالة أوغسطين وبلغة أقرب وبكل سحرية تجاوز ما هو كائن وشخص السبب في النزاع بين المملكتين الأرضية والسماوية.

وهذا الصراع فهو ليس أزلي وإنما مثلما له بداية تعكس نزوح النفس الإنسانية إلى الحسد وما انفك عنه من تأسيس المدينة الأرضية وفي المقابل نجد الرغبة في التطهر، وهذا يسمو الفرد إلى المدينة الفاضلة، وكما ورد في بدء الكلام فالنزاع بين المدينتين السماوية والأرضية يحسمه المسيح الذي يفصل الأبرار عن الأشرار في نهاية التاريخ، كما هو الأمر في المسيحية التي تبشر الرعية بالخلاص، وماديات المدينة الأرضية رغم تفوقها على المدينة السماوية إلا أنها من عالم الفساد والحقيقة كلها مرهونة بالجانب الروحي الجوهري الذي يتغلب في النهاية على الحالة العرضية الظرفية الزائلة لمجد ولقوة المدينة الأرضية، ومثال ذلك حال الإمبراطورية الرومانية التي عدها البعض بأنها أنموذج للإمبراطورية الخالدة التي لا تقهر، ومع ذلك فقد حل بها الهزال وهذا ما لم يستطع رفعه قوة الشيطان ولا الأوثان ولا التقدم المادي.

أيضا عند نزول نعمة اليسوع فلن يشفع لأتباع الشيطان والإرادة السيئة، ويحرر الفرد من الانتماء إلى عالمين ليصبح مواطنا مؤمنا في المدينة السماوية المقدسة، "فقد اقتبس القديس أوغسطين فكرة انتماء الفرد في وقت واحد إلى دولتين ومجتمعين أصغر وأكبر وصاغها في قالب جديد يلاءم الدين الجديد فيعتبر الإنسان مركب من عنصرين الجسد والروح، فلذلك فهو

---

[64]- أساقفة فرنسا، الإيمان المسيحي، تر: الأب أنطوان موصلي اللعازاري، (د ط؛ باريس: مطبوعات باريس، 2001)، ص 92.

[65]- العروي عبد الله، مفهوم التاريخ، (ط 3؛ المغرب: المركز الثقافي العربي1997)، ص 72.

ينتمي إلى وطنين"[66]، والروح تتغلب على الجسد وفي هذا عودة إلى الموروث الاسكندراني خصوصا مفهوم الفيض، فالمادة هي في أدنى المراتب وهي سبب الشرور وتتكدس في المدينة الأرضية، أما المدينة السماوية فتعرف إشراق الخيرات والمعرفة والذي يسير بحسب الجسد لا يعرف الحقائق ومصيره النهائي محسوم.

فهو إذا يتحمل عقاب الأشرار"إذ في النهاية فالمسيح اليسوع يعطي كل مدينة ما تستحقه العذاب للشيطان وأتباعه والسعادة الأبدية للأبرار"[67]، أما ما حدث مع روما فهو لا يعدو وأن يكون تعبيرا عن السعادة المزيفة التي ليست من نصيب المدينة الأرضية، لذلك عرفت حتمية التراجع والتدهور، ونفس المسار تعرفه المدينة الأرضية التي تبلغ ذروة التقدم لكنها في النهاية تنهار أمام القوة الروحية للمدينة السماوية المجيدة، ولو كانت هذه القوة الروحية هي الأساس أبدا ما لحق الدمار للإمبراطورية، لذلك يجب إعادة النظر في نمطية العلاقة بين الكنيسة وبين الدولة.

فالدولة المسيحية تحرر الذات من طلب المنافع والشهوات بالتعفف، قصد اجتناب كل الشرور، ففيما يذكر القديس أوغسطين قائلا: " كم من دم بشري سفك في سبيل المنافع؟ ضربات انتهت ولكن شقاوتنا لم تنته معها، لان أولئك الأعداد الذين كانوا لا يزالون اليوم أيضا شعوب غربية وجبت محاربتهم في الماضي، وفي الحاضر ورحابة المملكة أوجدت حروبا من نوع آخر. وأشد فتكا كالحروب الاجتماعية والمدنية وهي تضر بالمجتمع البشري وللأسف"[68]، فحقيقة الشقاء هي من فقدان الأمن والأمان داخل المجتمع بسبب إتباع نحلة الفساد والسير وفق ما يخالف إرادة الله.

فلا يكون ثمة استقرار بل دوما نجد ناقوس الخطر الذي يتجسد في حروب بين المدينتين الأرضية والسماوية أو بين الحبين، حب الذات لدرجة احتقار الله وحب الله لدرجة احتقار الذات، وفي المصير النهائي تسود محبة الله" وهناك تبطل حرب الفضائل ضد الرذيلة والشر لأنها تتمتع بجائزة النصر الأبدي الذي لا يعكر صفوة عدو، تلك هي حقا السعادة النهائية ونهاية

---

[66]- كريم محمد، تطور الفكر الفلسفي والسياسي، (ط 1؛ بيروت: المكتبة العصرية صيدا، 1994)، ص 171.

[67]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الخامس عشر، ص 256.

[68]- المصدر نفسه، ص 125.

الكمال"[69]، بفضل اشتداد شوكة المدينة السماوية من خلال الولادة الجديدة في المسيح مخلص البشرية من دنس وشرور الشياطين، ومن اشتدت شوكته وجبت طاعته، فعندما كانت المدينة الأرضية في أوج قوتها، وتجسدت في إمبراطوريات زمنية عديدة تغلبت على المدينة السماوية التي عملت على الانتفاع من خيور هذه المدينة الأرضية، لكن الحرب والغلبة هي لصالح محبة الله التي أحدثت القطيعة مع شهوات الجسد والأنانية لتصل إلى السلام الأبدي" وهي الغاية التي تجد فيها مدينة الإله خيرها الأفضل، ومن الأفضل أن نسمي هذا إما السلام في الحياة الأبدية أو الحياة الأبدية في السلام وفيها خير عظيم"[70].

وهذا الخير الأسمى والعظيم لا يكون هكذا جاهزا وإنما هو ثمرة المعاناة والصبر على الألم عند أهل المدينة السماوية، والكف عن إتباع الملذات لذلك نجد القديس أوغسطين يرد على الفلاسفة اليونان خصوصا الابيقوريين الذين شخصوا السعادة في الملذات الجسدية، ومعروف عن المسيحية طابع الزهد والتقشف في الملذات وهذا ما لا يقبله أهل المدينة الأرضية فيدركهم عقاب الأشرار في النهاية، ويثقل وزنهم ووزن مدينتهم إذ يوقعهم هذا في الجهل والظلمات، فيوضح أوغسطين قائلا: "إن وزني هو من طبيعة حبي"[71]، فالذي يحب الشيء المقدس محله الرفعة وحركته تؤول صوب السمو وتعلو نحو الدرجات، ومن ينغمس في محبة المدنس محله الظلمات وحركته تهوي دوما إلى الأسفل وإلى الدركات، هذا وتجدر الإشارة إلى أن القديس أوغسطين يعود إلى الموروث اليوناني، فأفلاطون أرجع النفس التي ارتكبت الخطيئة إلى ظلمات البدن، وأبوليوس في حديث عن الانسلاخ يعتبر الشخص الذي لا يدرك الحقائق هو مثل الحمار.

ويعد أوغسطين سكان المدينة السماوية بالخلاص والانتصار على طغيان واستبداد أهل المدينة الأرضية. هذا الاستبداد الذي يضع أهل هذه المدينة في جهنم عند مجيء المسيح من السماء ليدين الأحياء والأموات وهو الذي تعترف وتؤمن به كنيسة الله الحق بأسرها "وذلك ما يسميه أوغسطين اليوم الأخير للدينونة"[72]، وفي هذا اليوم تعطي الأولوية للكنيسة. فعبادة الأوثان هي

---

[69]- المصدر السابق نفسه، ص 129.

[70]- Alfred Webers Denis Huisman, Histoire de la philosophie européenne antique, (Paris : médiéval, Fischbacher, 1964), p 188.

[71]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب التاسع عشر، ص 141.

[72]- المصدر نفسه، ص ص 171، 172.

تيه وعماء، فدولة الدنيا الأرضية والتي تجسدت في الإمبراطورية الرومانية زالت لطغيان الأوثان فيها. ولو ارتبطت بالتعاليم المسيحية لأصبحت مدينة الله الخالدة المجيدة" والكنيسة هي محررة البشرية من الذنوب ومنقذها من الشرور الدينونة مادامت السلطة الممثلة للإله فوق الكرة الأرضية"[73].

فالصراع في جوهره ما بين المدينتين المتدخلتين يتخذ مستويات عديدة منها المجال الروحي الإيماني فهو من دينونة الكنيسة التي تؤمن السلام الأبدي وبين إتباع قوة الشيطان والانصهار في تقديس الأوثان، ويتخذ هذا الصراع شكل آخر بين سلطة الكنيسة ووضعها في الهامة عند أهل المدينة الأرضية، ووضعها في المقدمة عند أهل المدينة السماوية، وأيضا نجد الصراع بين مستويات العمارة التي تبلغ أوجها عند أهل المدينة الأرضية، وتضعف عند سكان المدينة السماوية التي تنهل من خيرات المدينة الأرضية.

ويتخذ هذا الصراع أيضا شكل آخر بين تأليه الماديات وإتباع الشهوات عند أهل المدينة الأرضية والعمل على تقديس الجانب الروحي عند أهل المدينة السماوية التي ليس هم أهلها تكديس الخيرات المادية، وإنما العمل من اجل إرضاء الله ولو على حساب الذات. والفاصل في هذا الصراع هي سلطة الكنيسة بعد مجيء المسيح مخلص البشرية، إذ يحرر الشعوب من المعاصي والحروب، وقد قال مال نفر كبير من سكان روما إلى المسيحية كونها بشرتهم بالخلاص الروحي وأبعدتهم عن الحروب التي عرفها المجتمع الروماني في حركته التوسعية الاستعمارية قصد بلوغ العالمية، وأوغسطين يقرر بولاء البشر للسلطة المحلية والروحية، لكن ينتهي هذا الولاء المزدوج على الدوام بتغلب السلطة الروحية[74].

وتنتصر مدينة السماء على المدينة الشيطانية. فما يعتبره الأفراد نموذج القوة وأداة لبسط النفوذ، ففي أنفسهم يتحول إلى سراب وأوهام لا تخلد الواقع بل في حقيقة الأمر تحيد عنه إذ تفاهم شعب مدينة الشيطان نجده يدور حول أمور ممقوتة أكثر، فالتمدن الحضاري وأبراج المدينة الأرضية لا تسمو بأهلها فبين طيات هذه المدينة احتقار الله مقابل إسراف وتفريط في تقديس الذات لدرجة الثمالة التي تذهب معها روح الفضيلة الأخلاقية لذلك الصراع يبقى قائم بين المدينتين لاختلافهما في طبيعة الحب والسلطة وتفاوتهما في درجة الإيمان.

---

[73]- بوحوش عمار، تطور النظريات والأنظمة السياسية، ص 114.

[74]- المرجع نفسه، ص 114.

ومن خلال الصراع القائم بين المدينتين الذي مساره من مسار التاريخ يوضح القديس أوغسطين الموقع الحقيقي للخلود لتكامل الجانب الروحي مع المادي مبنيا أن التكالب على ماديات الحضارة لا يفيد قوة التدبير، وإنما يخدم الهوى والرغبة فقط، ويخاطب أوغسطين الناجين من سكان روما بعدما نهب ألاريك مدينتهم وخربها، "بأنهم لم يفقدوا أي شيء أساسي بالنسبة لحياتهم وإنما خلاص الشعب الروماني يتمثل في المدينة الإلهية وليست في نقيضها مدينة الشيطان"[75].

فالعدالة موجودة وبناء الأبراج والأسوار لا يحمي المدينة، لأنها تشيد بأهلها لذلك يجب التحلي بالصبر لتحقيق خلاص الشعب والظفر بالخلود، وضمان قسطاس العدالة التي لا يمكنها أن تتحقق مادامت الدولة غير مسيحية، "وإنه من المغالطة القول بان الدولة قادرة على أن تعطي كل ذي حق حقه إذا كانت هذه الدولة نفسها لا تعطي حق الإله"[76]. فالعدالة موجودة تؤمنها الكنيسة التي ترعى الأفراد وتسهر على شؤونهم، وتعمل على استئصال بذور الذاتية فيهم مثلما تصور أفلاطون أن المراحل التربوية داخل جمهوريته تعد النشأة لبلوغ الفضيلة والحكمة، فأيضا عند القديس أوغسطين فالتعاليم المسيحية ليست لعنة أصابت الإمبراطورية الرومانية، وإنما كون روما مدينة أرضية.

فالخلود ليس من نصيبها وإنما هو حليف المدينة الإلهية التي ترعاها نعمة المخلص اليسوع الذي ينصر الأبرار على الأشرار ويغلب كفة المدينة السماوية، ويفصل الفضيلة عن الرذيلة، وبين حب الله وحب الذات، لذلك الصراع بين المدينتين يكتسي دلائل عدة بين الجانب الإيطيقي الأخلاقي، والسوسيولوجي الاجتماعي، والسياسي والاقتصادي والنزاع بين المدينتين قائم منذ الأزل منذ تأسيس المدينة الأرضية مع قابيل وهابيل، والإنسان ذو طبيعة مزدوجة تعكس جوهر هذا النزاع بسبب تلوث الإنسان بالخطيئة لذلك "تنازعه قوتان قوة دينية وقوة دنيوية، فهو ينتمي إلى عالمين يعيشان جنبا إلى جنب فيه العيشة الشهوانية...وعيشة الأشرار نهايتها الشقاء، وعيشة الأبرار ونهايتها النعيم"[77]، فالبشرية كلها تمر عبر الصراع الثنائي بين الخير والشر ليحسم بعد قدوم المسيح لصالح المدينة السماوية يوم القيامة "فهناك تبطل حرب الفضائل ضد الرذيلة والشر لأنها تمتع بجائزة النصر الأبدي الذي لا يعكر صفوه عدو تلك هي حقا السعادة

---

[75]- روباردو دارو، أوغسطين الهيبوني بين المدينة الدنيوية ومدينة الله، المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2004، ص 79.

[76]- حاروش نور الدين، تاريخ الفكر السياسي، ص 132.

[77]- الخنساء سلمى حمزة، تاريخ الفكر السياسي في العصور القديمة، ص 147.

النهائية، نهاية الكمال الذي لا تعقبه نهاية"[78] فعاقبة صبر أهل المدينة السماوية إذا هي السعادة الأبدية بعد النزاع المرير مع قوى الشيطان الأرضية المكبلة بقيود الشهوة والرغبة.

وهناك يكون حجر الأساس في تشييد المفهوم الحقيقي للمدينة على الرهبنة ونكران الذات والفضائل والتسامح، وبهذا تتجاوز شبح تدهور الحضارة وأفولها كوننا أدركنا سر الحياة السعيدة بعيدا كل البعد عن الصراع في الأرض المقدسة المطهرة من دنس الشيطان، وهكذا ينعطف القديس أوغسطين في تفصيله للصراع بين المدينتين إلى مقاصد أخرى تعكس تزاوج واقتران اللاهوت بالسياسة حين تحدث عن تفاعل الحضارات من العصر القديم إلى المسيحية وسر عملية الانتقال في نظرة شاملة عن التاريخ الروماني متوقفا عن مبدأ العناية الإلهية، مسلما بالخلاص وسعادة الأبرار حين تنكشف دينونة الله العادلة فيجازي كل واحد بأعماله، إما بالحياة الأبدية لمن يواظبون على العمل الصالح ويسعون إلى المجد والكرامة والبقاء، وإما بالغضب والسخط على المتمردين الذين يرفضون الحق وينقادون إلى الباطل، فحقيقة الخلود ودوام السلطة ليست هي إذا من نصيب الحضارة المادية المفرطة في استباحة الملذات والعاملة على جعل إرادة الأفراد تحيد عن محبة الله مثلما هو مشهود داخل المدينة الأرضية، بل السر من وراء هذا هو بالعودة إلى المسيحية والعمل بتعاليمها لتحقيق وحدة الجنس البشري والظفر بعناية الإله للوصول إلى السلام الأبدي.

لكن قبل الوصول إلى مرحلة السلام الأبدي وأثناء الحرب بين المدينتين السماوية والأرضية تتلقى المدينة السماوية من الهزائم ما يكفي لجعلها تتنعم في الأخير عندما ينزل المسيح ويغلبها على شرور المدينة الأرضية فلا غرابة أننا نجد أهل المدينة السماوية يحتقرون ذواتهم كونه يأملون بمتاع روحي اثكل من المتاع المادي في المدينة الأرضية.

[78]- القديس أوغسطين، مدينة الإله، الكتاب الخامس عشر، ص 129.